

الفصل الثالث

رواية شعر صراع الكفر والإيمان

انتهى بنا الحديث في الفصل السابق إلى أن شعر الأغراض الجاهلية العامة مرخص روايته، مباح تذاكره وتداوله، في حدود المستحب من القيم الخلقية والفكرية، والمباح السالم من الفحش والكذب، وما عدا ذلك محظور روايته اختياراً لترويج الفتنة والإغراء بها، أما ما كان اضطراراً للشاهد والمثل فالراوي حاك، وليس على الحاكي شيء، ولكن يحسن أن يكون له موقف إيجابي مما يرويه، بالتعقيب على الفاسد، والإبانة عنه، استبراءً لدينه ونفسه.

غير أن الصراع الذي طال أمده بين الكفر والإيمان طوال اثنين وعشرين عاماً من لدن البعثة حتى عام الوفود سنة تسع للهجرة، اتخذ الشعر عاملاً فاعلاً في التحريض على الإسلام من جهة المشركين، أو الدفاع عنه من جهة المسلمين.

وحمل هذا الشعر في منطلقاته الأساسية عمق العداوة الدينية بين قريش ومن عاضدها من القبائل وبين المسلمين مهاجرين وأنصاراً، ثم ما فتىء أن جرى في محاور اجتماعية؛ قبلية وخلقية، ذمّاً بالمثالب والمعائب، والأحساب والأنساب، إذ لم يكن لقريش في هذا المجال من أسلوب غير الانتقاص والهجاء والإعابة بالأباء والأمهات. ومع أن الشعر الإسلامي سلك هذا السبيل اضطراراً حيث فرضته المناقضة وتقاليدها معنى ومبنى، فإن الزراية على قريش بالكفر وتهديدها بوعيد الله لهم بجحيم وعذاب النار وما إلى ذلك من أساليب الدعوة ترهيباً أو ترغيباً، ظلت خطأً مميزاً في هذه النقائض سواء عند من اختص بذلك مثل عبد الله بن رواحة رضي الله عنه أو من

غلب عليه التعبير بالوقائع والأيام والمعائب والمآثر مثل حسان بن ثابت وكعب بن مالك رضي الله عنهما.

وخاض في هذه النقائض من قريش أبو سفيان بن الحارث، وعبد الله بن الزبير، وضرار بن الخطاب، وأبو عزة الجمحي، وهبيرة بن وهب المخزومي^(١)، وساندهم من شعراء القبائل أمية بن أبي الصلت في رثائه قتلى بدر، والأسود بن يعفر في الإشادة بانتصار قريش في أحد، والعباس بن مرداس السلمي. ومن شعراء اليهود كعب بن الأشرف، وجبل بن جوال الثعلبي، وسماك ومرحّب. ومن النساء هند بنت عتبة، وقتيلة بنت الحارث، وصفية بنت مسافر^(٢).

القرآن الكريم ورواية شعر الصراع

ولما كان لهذا الشعر قوة عملية طلبية جاء وصفه في كتاب الله بلازمه من الغواية، قال تعالى: ﴿والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون مالا يفعلون إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً، وانتصروا من بعد ما ظلموا، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾^(٣)، لأنه يحرك نفوس الناس حركة الكراهية أو الحب أو الانفعال بلا علم أو تصديق.

وأدرك ابن عباس رضي الله عنه شمول الآيات الكريمة لدور رواية الشعر وخطره المؤثر في المجال الذي يتحرك فيه فقال: «الغاوون: هم الرواة...»^(٤)، وروي عنه أيضاً: «أن الآية نزلت في شعراء المشركين؛ عبد الله بن الزبير، وهبيرة بن وهب المخزومي، ومسافع بن عبد مناف، وأبو عزة الجمحي، وأمие بن أبي الصلت، قالوا:

(١) انظر ابن سلام: طبقات فحول الشعراء ١/٣٣٧، ٢٤٧، ٢٤٩، ٢٥٣، ٢٥٧.

(٢) انظر ابن هشام: السيرة النبوية ٢/٧٦٠، ٣/١٠٠٤-١٠٠٦، ١٠٩٣.

وأحمد الشايب: تاريخ النقائض ١١٥-١١٦ ود. شوقي ضيف: العصر الإسلامي ص ٥٠.

(٣) سورة الشعراء: آية ٢٢٤-٢٢٧.

(٤) الطبري: جامع البيان ١٩/٧٨ والزمخشري: الفائق ٣/١٣٣.

نحن نقول مثل قول محمد، وكانوا يهجونه، ويجتمع إليهم الأعراب من قومهم يستمعون أشعارهم وأهاجيهم، وهم الغاؤون الذين يتبعونهم»^(١).

ولا شك أن هذا الفهم ملحوظ فيه عموم الغواية دون خصوصها، فالله سبحانه وتعالى لم يخصص بعض الغواة دون بعض، بل شمل جميع أصنافهم من سفهاء الناس والشطار والشياطين وعصاة الجن في تبعية شعر المشركين^(٢).

وهجاء المشركين للمسلمين ظلم، لأنه صدى جحودهم بآيات الله، وتكذيبهم ببيناته التي أنزلت ﴿وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون﴾^(٣) ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً وهو يدعى إلى الإسلام﴾^(٤) ولذلك رصدت الآيات سوء المنقلب للمشركين المتعاملين بهذا الهجاء، فقد توعدهم الله بقوله: ﴿وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾ وهو تهديد شديد، ووعيد أكيد لما في ﴿سيعلم﴾ من تهويل متعلقه^(٥).

وعلى الرغم من أن (الذين ظلموا) فيها إطلاق وتعميم شامل للشعراء وغيرهم من أهل مكة ومن المشركين وكل ظالم، فإن الآيات تمنح الشرعية لانتصار الشعراء المسلمين ممن هاجهم واعتدى بالقول على عقيدتهم، حيث «أرخص الله للشعراء بهذه الآية في هجائهم لمن تعرض لهم»^(٦) من غير اعتداء ولا زيادة، كما تشير إليه قراءة بعضهم «وانتصروا بمثل ما ظلموا»^(٧) ويوجه إليه حديث الرسول صلى الله عليه وسلم للشعراء المسلمين، فعن عمار بن ياسر قال: «لما هجانا المشركون شكونا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: «قولوا لهم كما يقولون لكم» ولقد رأيتنا

(١) الألويسي: روح المعاني ١٤٦/٢١.

(٢) الطبري: جامع البيان ٧٨/١٩.

(٣) سورة العنكبوت: آية ٤٩.

(٤) سورة الصف: آية ٧.

(٥) الألويسي: روح المعاني ١٥٢/٢١.

(٦) ابن عبد ربه: العقد الفريد ١٤٥/٦.

(٧) المصدر نفسه ١٤٧/٢١.

نعلمه لأهل المدينة»^(١).

وربما توجه استنباط الشوكاني وهو بصدد تفسير آيات الشعراء إلى أن رواية شعر المشركين قد تصل إلى الحرام، ورواية شعر المسلمين في هذا الصراع فيها درجة الواجب أو المندوب إليه، يقول: «واعلم أن الشعر في نفسه ينقسم إلى أقسام، فقد يبلغ ما لا خير فيه إلى قسم الحرام، وقد يبلغ ما فيه خير إلى قسم الواجب، فإن الانتصار للحق وتزييف الباطل به من أعظم المجاهدة، وفاعله من المجاهدين في سبيل الله المنتصرين لدينه، القائمين بما أمر الله القيام به»^(٢).

على أن بعض الفضلاء ذكر أن ما يحرم إنشاؤه قد لا تحرم روايته، ولا شك أن ذلك مفيد بما خلا من الفحش والمخنا، وألا يكون فيه لمسلم أذى حياً أو ميتاً، وأن تدعو إليه حاجة من علم أو دلالة^(٣).

الرسول صلى الله عليه وسلم ورواية شعر الصراع

استنهض رسول الله صلى الله عليه وسلم همة شعراء المسلمين في الدفاع عن الإسلام وأهله، حين رأى مشركي قريش يذيعون أشعارهم في الصد عن سبيل الله، والتحريض على المسلمين، وإجهاض فاعلية حركة الدعاة الذين كان يبعث بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى القبائل. فقد روي أنه قال للأنصار: «ما يمنع القوم الذين نصرنا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بالسنتهم؟ فقال حسان بن ثابت: أنا لها، وأخذ بطرف لسانه وقال: والله ما يسرنى به مقول بين بصري وصنعاء»^(٤). وكان حرصه عليه الصلاة والسلام شديداً على أن يؤدي شعر المسلمين غايته على الوجه الأنتم في إحباط عتو المشركين ودحض افتراءاتهم، ولذلك فهو ينتخب الشاعر

(١) قال الهيثمي: رواه أحمد والبخاري ونحوه والطبراني ورجالهم ثقات. (مجمع الزوائد ٨ / ١٢٣-١٢٤).

(٢) الشوكاني: فتح القدير ١٥١/٤.

(٣) الألوسي: روح المعاني ١٥١/٢١.

(٤) الأصفهاني: الأغاني ١٣٧/٤.

الفحل والشعر المتين ليكون شافياً في سيرورته والنيل من حركة قریش بین القبائل، ففي الحديث الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: «اهجوا قريشاً فإنه أشد عليها من رشق النبل» فجاءه علي بن أبي طالب فصرفه، ثم عبد الله بن رواحه فلم يعجبه هجاءه، واستحسن بعد ذلك ما قاله كعب بن مالك، غير أنه رضي عما أنشده حسان فقال: «لقد شفى واشتفى» ودعاه بالتأييد بقوله: «إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله»^(١).

وفي حمى هذا الحرص على أن يظل طابع هذه المنافة دينياً قائماً على الدعوة إلى الله، جاء توجيه الرسول عليه الصلاة والسلام لكعب بن مالك، «فعن كعب بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم مرّ به وهو ينشد ويقول:

ألا هل أتى غسان عنا ودونهم من الأرض حرق حوله يتتبع
تجالدنا عن حرماننا كل فحمة كردد لها فيها القوابس تلمع

فقال النبي: «لا يا كعب بن مالك، فقال كعب: تجالدا عن ديننا كل فحمة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم نعم يا كعب»^(٢).

ونال هذا الشعر منزلة رفيعة القدر، عالية الدرجة، إذ عدّه رسول الله صلى الله عليه وسلم نوعاً من الجهاد فيقول: «إن المسلم يجاهد بسيفه ولسانه، والذي نفسي بيده لكان ما ترمونهم به نضح النبل»^(٣). وفي هذه المنزلة تعزيز لتدب روايته وفضل حفظه ونقله.

ومنح هذا الشعر شرفاً معزّزاً لروايته، ومتحسناً لمواضع سيرورته، وذلك حين أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم لحسان بإنشاده في مسجده، فعن عائشة رضي

(١) انظر ما رواه الإمام مسلم ١٦ / ٤٨-٤٩.

(٢) الهيثمي: مجمع الزوائد ٨ / ١٢٤ قال: رواه الطبراني وإسناده حسن.

(٣) رواه مسلم: صحيح مسلم ١٦ / ٤٦.

الله عنها قالت: «وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم لحسان منبراً في المسجد ينافح عنه بالشعر عليه»^(١).

وبهذا التعزيز للقيمة الموضعية المكانية والزمانية، جاء تأييد الرسول صلى الله عليه وسلم لشعر ابن رواحة وهو يلتمس له انتشاراً وتأثيراً في قريش، فقد أورد النسائي تحت باب جواز إنشاد الشعر في الحرم وبين يدي الإمام وروى الترمذي وصححه عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل مكة في عمرة القضاء وعبد الله بن رواحة يمشي بين يديه ويقول:

خلوا بني الكفار عن سبيله اليوم نضربكم على تنزيله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله

فقال عمر: يا بن رواحة! في حرم الله وبين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله: «خل عنه يا عمر فلهو أسرع فيهم من نضح النبل»^(٢).

وبلغ هذا اللون من الشعر غايته في إيقاع الخوف والرعب في قبائل العرب التي حملته الرواية إليها، وأصاب أسلوب التهديد غرضه في الدعوة، فأدخل الوهن في قلوب المشركين، فدخلوا في الإسلام بتأثيره. روى ابن سيرين قال: بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفره قد شقق ناقته بزمامها حتى وضعت رأسها عند مقدمة الرحل، إذ قال يا كعب بن مالك: احذ بنا! فقال كعب:

قضينا من تهامة كل حق وخيبر ثم أجممنا السيوف
نخيرها ولو نطقنا لقاتل قواطعهن دوساً أو ثقيفا

(١) رواه الطبراني وإسناده حسن (الهيتمي: مجمع الزوائد ٨/١٢٤).

(٢) رواه النسائي: سنن النسائي ٥/١٥٩-١٦٠ والترمذي: باب الأدب ومسنده أحمد ج ٦ حديث

فقال عليه السلام: «والذي نفسي بيده لهي أشد عليهم من رشق النبل»^(١).

ويقال إن دوساً أسلمت فرقاً من كلمة كعب هذه، وقالوا: اذهبوا فخذوا لأنفسكم الأمان من قبل أن ينزل بكم ما نزل بغيركم»^(٢).

ويظل هذا التأييد النبوي لشعراء المسلمين وشعرهم في دفع أذى قريش والمتحالفين معها مرحلياً زمن إقامة دولة الإسلام، فإذا ما فتحت مكة، وجاء نصر الله والفتح، ودخل الناس في دين الله أفرداً وأفواجاً وقبائل عام الوفود، فإن هذا الشعر، خاصة ما كان منه مؤذياً للآباء والأنساب، أضحى مطلوباً الحياد عنه، ففي حديث محمد بن علي الباقر الذي أخرجه ابن أبي الدنيا مرسلأً، نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أن تسب قتلى بدر من المشركين فقال: «لا تسبوا هؤلاء، فإنه لا يخلص إليهم شيء مما تقولون، وتؤذون الأحياء، ألا إن البذاء لؤم» وأخرج النسائي عن ابن عباس بإسناد صحيح أن رجلاً وقع في آب للعباس كان في الجاهلية فنظمه . . . وفيه «لا تسبوا أمواتنا فتؤذوا أحياءنا»^(٣).



وكان شعر الهجائين من المشركين تصل روايته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، عن طريق الصحابة الذين لم يكونوا ليكتموه شيئاً منه، فما يؤذيه يؤذيهم، وما يؤذيهم فإنه يؤذيه، وما كان أحدهم ليغضي عن مساس بدين الله الذي نذروا أنفسهم وما يملكون من أجله، فمن ذلك قصيدة كعب بن زهير التي بعث بها إلى أخيه بجير يلومه على اتباعه لدين محمد صلى الله عليه وسلم ويحرضه على الردة عنه، قال كعب بن زهير:

(١) في رواية أخرى: «لهو أسرع فيهم من السهم في غلس الظلام» (البيهقي: المحاسن والمساويء ص ٢٥٣).

(٢) الحصري القيرواني: زهر الآداب ٦٥/١ والبيهقي: المحاسن والمساويء ٢٥٣.

(٣) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين وحاشية التحقيق ١٥٢/٣.

من مبلغ عني بجيراً رسالة
شربت مع المأمون كأساً رويةً
وخالفت أسباب الهدى واتبعته
على خلق لم تُلفِ أمّاً ولا أباً
فإن أنت لم تفعل فلست بأسفٍ
ولا قائلٍ إما عثرت لِعاً لكا
فهل لك فيما قُلْتُ بالخيف هل لكا
فأنهلك المأمون منها وعلكا
على أي شيء وَبَّ غيرك دُلكا
عليه ولم تدرك عليه أخاً لكا
ولا قائلٍ إما عثرت لِعاً لكا

فلما أتت بجيراً كره أن يكتمها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنشده إياها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سمع «سقاك بها المأمون»: «صدق وإنه لكذوب، أنا المأمون» ولما سمع «على خلق لم تلف أمّاً ولا أباً عليه» قال: «أجل لم يلف عليه أباه ولا أمه»^(١).

وكان لرسول الله صلى الله عليه وسلم أسلوبان مؤتلفان في التصدي لشعر المشركين في هذا الصراع ومنع روايته وانتشاره.

الأول: إهدار دم شعراء المشركين

وكان ذلك جزاءً وفاقاً لما نظموه من هجاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمسلمين أو تحريض على الدعوة الإسلامية، فقد أهدر رسول الله صلى الله عليه وسلم دم عدد من الشعراء، ونُقذ القتل في بعض منهم، فممن أمر بقتله كعب بن الأشرف اليهودي الذي قدم مكة وجعل يحرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وينشد الأشعار، ويكي أصحاب القليب من قريش الذين أصيبوا بيدر، ثم رجع إلى المدينة فشيب بنساء المسلمين حتى آذاهم^(٢)، وممن كان يشيب بهن أم الفضل بن العباس، وأم حكيم ابنة عبد المطلب^(٣). فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اللهم اكفني ابن الأشرف بما شئت في إعلانه الشر، وقوله الأشعار، ثم قال: من لي بابن

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ٤ / ١٣٤٥-١٣٥٥.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية ٢ / ٨١٣، ٨١٧.

(٣) أبو زيد القرشي: جمهرة أشعار العرب ق ١ / ١٥١ تحقيق د. محمد الهاشمي.

الأشرف؟ فقال محمد بن مسلمة أنا لك به يا رسول الله، وأما أقتله . . . فقتله^(١).

ومنهم أبو عزة الجمحي^(٢) الذي أُسر يوم بدر كافرًا، فطلب من رسول الله أن يَمُنَّ عليه فقال عليه الصلاة والسلام على أن لا تعين عليّ - يريد شعره، قال: نعم، فعاهده وأطلقه، فلما كان يوم أحد دعاه صفوان بن أمية بن خلف الجمحي وأغراه، وكان محتاجًا، فخرج فسار في بني كنانة فحرّضهم، ثم وقع في الأسر يوم أحد، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا يلسع المؤمن من جحر مرتين، فقتله^(٣).

وفي فتح مكة أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتل نفر من المشركين وإن وجدوا تحت استار الكعبة، منهم من كانت جريمته الردة عن الإسلام فضلًا عن هجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو عبد الله بن خطل وقينته فرتنى وصاحبته وكانتا تغنيان بهجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، أما عبد الله فقتله سعيد بن حريث المخزومي وأبو برزة الأسلمي، وأما قينتا ابن خطل فقتلت فرتنى وهربت الأخرى حتى استؤمن لها رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد فأمنها^(٤).

وسير رسول الله صلى الله عليه وسلم سالم بن عمير في سرية لقتل أبي عَفْكَ اليهودي، وكان قد ظهر نفاقه وبدا في شعر نظمه بعد قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم للحارث بن سويد بن صامت فقتله سالم^(٥).

ونظمت عصماء بنت مروان شعراً تعيب فيه الإسلام وأهله، وتحرّض فيه على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله حين بلغه ذلك «ألا آخذ لي من ابنة مروان» فقتلها عمير بن عدي الخطمي^(٦).

(١) المقرئزي: إمتاع الأسماع ١/١١٠.

(٢) هو عمرو بن عبد الله بن عمري بن وهب بن حذافة بن جمح.

(٣) ابن سلام: طبقات فحول الشعراء ١/٢٥٣، ٢٥٥.

(٤) ابن هشام: السيرة النبوية ٤/١٢٥١-١٢٥٣.

(٥) المصدر نفسه ٤/١٤٩٣. (٦) المصدر نفسه ٤/١٤٩٤-١٤٩٥.

وجاء كعب بن زهير تائباً يعلن إسلامه ويمدح رسول الله صلى الله عليه وسلم فنجا من الموت بعد أن أهدر دمه، وهرب عبد الله بن الزبير إلى نجران فلم ينجح من الخوف، وعاد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تائباً يمدحه^(١). أما هبيرة بن وهب الذي كان شاعراً من رجال قريش المعدودين، شديد العداوة لله ولرسوله، فهرب إلى نجران أيضاً فأخمله الله وأبعده ودحقه حتى صار الناس لا يبالون به، وأقام بها حتى مات بها كافراً^(٢).

وعلى الرغم من عنف العقاب الذي وقع بأصحاب هذه الأشعار الهاجية لرسول الله والمسلمين أو المحرّضة على الإسلام، فلعل فعله عليه الصلاة والسلام دليل على منع رواية هذه الأشعار في مرحلة من مراحل إقامة شرع الله وترسيخ بناء الدولة الإسلامية آنذاك.

الثاني: النهي عن رواية بعض القصائد

روي من أكثر من وجه أن الرسول صلى الله عليه وسلم نهى عن رواية بعض القصائد، منها ما يتعلق بالصراع بين قريش والمسلمين تعلقاً مباشراً، ومنها ما كان تعلقه به تعلقاً غير مباشر من حيث مقتضى الكفر ولوازم الإيمان.

فمن الأحاديث المروية في هذا المجال حديث أبي هريرة الذي رواه الإمام الحافظ المحدث الفقيه أبو ذر بن محمد بن مسعود الخشني (٥٣٣ - ٦٠٤هـ) قال: حدثنا الفقيه المحدث أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن علي النميري فيما أجازه لنا غير واحد من شيوخنا قالوا: حدثنا الفقيه القاضي الشهيد أبو علي الصدفي هو ابن سكرة عن أبي الفضل محمد بن أحمد الأصبهاني عن أبي نعيم الحافظ قال: حدثنا محمد بن إبراهيم، قال: حدثنا أحمد بن علي قال: أخبرنا إبراهيم بن سعيد الجوهري قال: أخبرنا شبابة بن سوار عن أبي بكر الهذلي، عن محمد بن يسير، عن

(١) المصدر نفسه ٤/١٢٦١.

(٢) المصدر نفسه ٤/١٢٦٣ وابن سلام: طبقات فحول الشعراء ١/٢٥٧.

أبي هريرة قال: «رخص رسول الله صلى الله عليه وسلم في شعر الجاهلية إلا القصيدة التي أولها:

ألاً بكيت على الكرام م بني الكرام أولى الممادح
وقصيدة الأعشى التي أولها:

عهدي بها في الحي قد دُرَعْتُ هيفاءً مثل المهرة الضامر^(١)»

وجاء الحديث مضطرباً في متنه، ضعيفاً في سنده في رواية البزار وأبي يعلى عن أبي هريرة قال: «رخص لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في شعر الجاهلية إلا قصيدتين للأعشى زعم أنه أشرك فيهما، وفي رواية: رخص رسول الله صلى الله عليه وسلم في شعر الجاهلية إلا قصيدتين للأعشى إحداهما في أهل بدر والأخرى في عامر وعلقمة». قال الهيثمي: رواه كله البزار وأبو يعلى باختصار، وفي إسنادهما من لا تقوم به حجة^(٢).

قلت: هو كما قال الحافظ الهيثمي، فإن في إسناده أبا بكر الهذلي، وهو سلمى بن عبد الله أبو بكر البصري الهذلي، صاحب الحسن واه، وهو بكنيته أشهر^(٣). وقال فيه الحافظ بن حجر: قال ابن معين: ليس بشيء، وقال فيه أبو زرعة ضعيف، وقال أبو حاتم: لين الحديث، يكتب حديثه ولا يحتج به، وقال النسائي:

(١) الحافظ أبو ذر محمد بن مسعود الخشني: شرح السيرة النبوية ١/١٩٨.

(٢) الهيثمي: مجمع الزوائد ٨/١٢٢.

روى هذا الحديث البزار في مسنده بطريقتين، الأول فيه أبو بكر الهذلي وقد ضعفه أهل الحديث وتركوه، والثاني فيه سليمان بن الأرقم وهو متروك الحديث (انظر كشف الأستار ج ٢/٤٥٤).

وذكر طرفاً من الحديث ابن حجر في الإصابة ج ٢/٤٩٦ وعزاه لابن أبي الدنيا في كتاب الشكر وابن عوانه في صحيحه.

(٣) ابن حجر: لسان الميزان ٣/٧١.

ليس بثقة ولا يكتب حديثه، وقال علي بن الجنيد: متروك الحديث، وقال فيه علي بن
المديني: ضعيف وليس بشيء، وقال مرة ضعيف جداً، وكان عنه يقول: أبو بكر
الهدلي إمامنا وكان يكذب^(١)، وذكره البخاري في الضعفاء الصغير، وقال الحافظ ابن
حجر فيه: متروك الحديث^(٢).

ورواه الأموي في مغازيه قال: سمعت أبي حدثنا سليمان الأرقم عن ابن سيرين
عن أبي هريرة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عفا عن شعر الجاهلية، قال
سليمان فذكر ذلك عن الزهري فقال: عفا عنه إلا قصيدتين: كلمة أمية التي ذكر فيها
أهل بدر، وكلمة الأعشى التي يذكر فيها الأحوص» قال ابن كثير مضعفاً الحديث
بالطعن في أحد رواته: «وهذا حديث غريب، وسليمان بن الأرقم هذا متروك، والله
أعلم»^(٣).

قلت: والحديث من هذا الطريق ضعيف لا يجبر ضعفه أيضاً، ذلك أن
سليمان بن الأرقم هذا كما قال الحافظ ابن كثير، فهو ليس بشيء، قال فيه الإمام
أحمد فيما رواه عنه ابنه عبد الله: لا يساوي شيئاً، وقال ابن معين: ليس بشيء، ليس
يساوي فلساً، وقال عمرو بن علي: ليس بثقة روى أحاديث منكراً، قال البخاري:
تركوه، وقال ابن عدي: عامة ما يتابع عليه، وقال فيه ابن حبان: وكان ممن يقلب
الأخبار، ويروي عن الثقات الموضوعات.

وعلى ذلك فمن كان بما قيل فيه هذا الجرح فهو عند أهل الحديث لا يحتج به
ولا بحديثه.

وللحديث طريق آخر أورده البغدادي عن السيوطي قال: قال وكيع في
الغرر عن الزهري: «رخص رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأشعار كلها إلا هاتين

(١) ابن حجر: التهذيب ٤٧/١٢.

(٢) الحافظ ابن حجر: لسان الميزان ج ٧١/٣.

(٣) الحافظ ابن كثير: البداية والنهاية ٣/٣٤٣.

الكلمتين : التي قال أمية بن أبي الصلت في أهل بدر (ماذا بيدر فالعقتل . . من
مرازية ججاجح) والتي قال الأعشى في علقمة بن علاثة : (شأقتك من قتلة
أطلالها)^(١).

وإذا كان حديث أبي هريرة قد جمع في النهي قصيدتي أمية بن أبي الصلت
والأعشى ، فإن حديث محمد بن مسلمة خصص النهي بقصيدة الأعشى في هجاء
علقمة بن علاثة دون غيرها ؛ روى ابن أبي الدنيا في قضاء الحوائج تحت عنوان شكر
الناس من شكر الله^(٢) قال : أخبرنا القاضي أبو القاسم حدثنا عبد الله حدثنا سفيان بن
محمد المصيمي ، ذكر أبو نعيم اسحاق بن الفرات التجيبي (تجيبني كنده) حدثنا أبو
الهيثم عن مالك عن أنس عن الزهري عن أبي حدرد الأسلمي أو ابن حدرد الأسلمي
قال : قدمت المدينة في خلافة عمر بن الخطاب فأردت الحج ، فلما أتيت مكة قلت :
اللهم قيض لي رجلاً من أصحاب نبيك صلى الله عليه وسلم ، كان نبيك يحبه ، وكان
يحب نبيك صلى الله عليه وسلم ، فإذا أنا بغلام أسود على حمار يقود ناقة خلفها شيخ
على حمارة ، فقلت للأسود : يا غلام ! من الشيخ ؟ قال : محمد بن مسلمة الأنصاري
صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وافقت خير رفيق ، ونازلت خير نزيل ،
فتذاكرنا يوماً في مسيرنا الشكر ، فقال محمد بن مسلمة : كنا يوماً عند رسول الله صلى
الله عليه وسلم فقال لحسان بن ثابت : أنشدني قصيدة من شعر الجاهلية ، فإن الله عز
وجل قد وضع عنا آثامها في شعرها وروايتها ، فأنشده قصيدة للأعشى هجا بها
علقمة بن علاثة :

علقم ما أنت إلى عامر الناقض الأوتار والواتر

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : يا حسان لا تنشدني هذه القصيدة بعد مجلسي
هذا ، قال : يا رسول الله تنهاني عن رجل مشرك مقيم عند قيصر ، فقال النبي صلى

(١) عبد القادر البغدادي : خزنة الأدب ٣ / ٤٠١-٤٠٢ ط الخانجي ، وأبو زيد القرشي : جمهرة
أشعار العرب ١ / ٢٠٣ .

(٢) انظر قضاء الحوائج حديث رقم ٧٤ .

الله عليه وسلم: يا حسان! أشكر الناس أشكرهم لله، وإن قيصر سأل أبا سفيان بن حرب عني فتناول مني مقالاً، وسأل هذا عني فأحسن القول، فشكره رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك»^(١).

وهذا الحديث ضعيف؛ لأن في سنده أبا الهيثم العبدى (خالد بن عبد الرحمن العبدى، أبو الهيثم العطار) قال عنه الحافظ ابن حجر: مجهول^(٢)، وقال ابن حبان عنه منكر الحديث، وقال ابن حجر: أتى عن مالك بن خنيزر منكر رواه عنه اسحاق بن الفرات، والخبر المذكور في كتاب قضاء الحوائج لابن أبي الدنيا وإسناده صحيح ومثته منكر كما قال المصنف.

وأخرجه الدارقطني في غرائب مالك من طريق اسحاق بن الفرات عنه (أبو الهيثم) عن مالك عن الزهري عن أبي حنيفة الأسلمي، وذكر القصة ثم قال: أبو الهيثم العبدى مجهول، وهذا غير محفوظ عن مالك ولا عن الزهري^(٣).

وقد ذكر طرفاً من الحديث كل من الزمخشري^(٤) وابن الأثير^(٥)، وذكر هذه القصة ابن حجر في ترجمته لعلقمة بن علاثة وقال: وقد رواه أبو عوانة في صحيحه بعد ذكر الحديث، وقال: ورأيت نحو ذلك مروياً عن ابن عباس^(٦). قلت: ولم أجد ذلك في صحيح أبي عوانة، ولم أجد عن ابن عباس. ولكن فيما وقفت عليه من طرق رواية الحديث فإنها لا تخلو من القدح بها.

(١) روى عبد القادر البغدادي هذا الحديث من طريق أبي نعيم والخطيب وابن عساكر عن محمد بن مسلمة، مع اختلاف في بعض ألفاظ الحديث كقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «أنشدنا من شعر الجاهلية ما عفا الله لنا منه... يا حسان لا تشدني مثل هذا بعد اليوم، فقال حسان: «يا رسول الله! ما يمنعني من رجل مشرك هو عند قيصر أن أذكر هجاء له» (خزانة الأدب: ٤٠١/٣).

(٢) انظر ابن حجر: لسان الميزان ج ٢/٣٩٣. (٣) لسان الميزان: ج ٧/١١٩.

(٤) الفائق: ٢/٢٥٠. (٥) النهاية في غريب الحديث ج ٢/٤٧٨.

(٦) ابن حجر: الإصابة ج ٢/٤٩٦.

والخلاصة أن أحاديث النهي عن رواية بعض القصائد (أمية بن أبي الصلت والأعشى) ضعيفة، حيث فيها من الرواة الضعيف الواهي الضعيف، والمتروك، ومنكر الحديث، إلا أن تعدد طرق رواية الحديث قد يكون فيها إشارة إلى أن له أصلاً، يقول البيهقي: «وإذا روي الحديث من أوجه أخرى، وإن كان ضعيفاً، دل على أن للحديث أصلاً»^(١).

وعلى ذلك فقد وجد أهل العلم في هذا النهي مجالاً للقول، إذ أن في الحديث ترخيصاً عاماً في رواية الشعر الجاهلي، واستثناءً خاصاً في قصيدتي أمية والأعشى.

أما الترخيص العام فمنسجم وفعل الصحابة والتابعين في رواية الشعر الجاهلي الذي انتهى البحث فيه إلى أن ذلك كان يجري في اتجاهين:

الأول: الالتزام أو الندب إلى الحسن منه مثل شعر الحكمة والقيم الخلقية والفكرية، الذي هو من ضالة المؤمن في طلب ما كان حقاً، والانتفاع به تصديقاً وعملاً.

الثاني: الإباحة في تناشد الشعر الجاهلي وروايته في عموم جنسه دون خصوص نوعه من حيث أن الراوية حاك، ما دام مقصوده الدلالة على العلم بالشاهد والمثل.

وأما الاستثناء الخاص بالنهي عن رواية قصيدتي أمية والأعشى فمتناسب والقول بالمرحلية التي سبقت الإشارة إليها، وذهب إليها بعض أهل العلم. يقول الخشني: «وقال بعض أهل العلم: إنما كان هذا المنع من إنشاد هاتين القصيدتين في أول الإسلام؛ لما كان بين المسلمين والمشركين، وأما إذا عمَّ الإسلام ودخل فيه الناس، وزالت البغض والعداوة، فلا بأس بإنشادهما»^(٢).

فالنهي عن رواية هاتين القصيدتين مقيد بعلة، فلما زالت العلة زال النهي، تماماً كما هو شأن سجع الكهان، الذي حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على وأده

(١) البيهقي: دلائل النبوة ٤٦٦/١.

(٢) محمد بن مسعود الخشني: شرح السيرة النبوية ١٩٩/١.

بالنهي عنه في قوله لَحَمَل بن النابغة الهذلي: «إنما هو من إخوان الكهان» أو «أسجاعة كسجع الجاهلية» لارتباط السجع بالكهان الذين كانوا يدعون أن مع كل واحد منهم رثياً، افتراء وكذباً ﴿هل أنبئكم على من تنزل الشياطين، تنزل على كل أفك أئيم، يلقون السمع وأكثرهم كاذبون﴾^(١)، ويربط الجاحظ بين القضيتين الأدبيتين (القصيدتين والسجع) فيقول: «وقع النهي في ذلك الدهر لقرب عهدهم بالجاهلية، ولبقيتها فيهم، وفي صدور كثير منهم، فلما زالت العلة زال التحريم، وقد كانت الخطباء تتكلم عند الخلفاء الراشدين فتكون في تلك الخطب أسجاع كثيرة فلا ينهونهم». «وكان النهي ظاهراً عن مرثية أمية، وروى الناس شبيهاً بها في هجاء علقمة، فلما زالت العلة زال النهي»^(٢)

وقد يعزز القول بالمرحلية أيضاً موقف ابن هشام في السيرة من قصيدة أمية بن أبي الصلت خاصة، حيث روى القصيدة لكنه أسقط منها ما كان هجاءاً للصحابة رضوان الله تعالى عنهم، قال ابن هشام معقباً على القصيدة: «تركنا منها بيتين نال فيهما من أصحاب رسول الله»^(٣).

غير أن القول بالمرحلية النهي إذا كان متطابقاً ومنسجماً مع قصيدة أمية بن أبي الصلت في رثاء قتلى بدر، فإنه قد يظل متأبياً على القبول في قصيدة الأعشى في هجاء علقمة؛ لأن الشكر إذا كان سبباً في النهي عن رواية هذه القصيدة حين كان علقمة جاهلياً، فإن النهي ذاته ادعى أن يظل قائماً وقد أضحي علقمة صحابياً مسلماً. على أن في الوقوف على مضمون القصيدتين ما يفسر القول بالمرحلية أو يوجهها.

تخلو قصيدة أمية بن أبي الصلت من الهجاء إذا استثنينا البيتين اللذين أسقطتهما ابن هشام، إلا أنها تحريض واضح ضد الإسلام والمسلمين، والتحريض سعي بالفساد، وحث عليه، وترغيب به. إذ تبدأ القصيدة بالبكاء على قتلى بدر، الذين منهم

(١) سورة الشعراء: آية ٢٢١-٢٢٣.

(٢) الجاحظ: البيان والتبيين. ١/٢٩٠-٢٩١.

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية ٢/٧٩٠.

الأسياذ «مراذبة جحاجح» وفيهم الشيب والشباب «شمط وشبان» يقول أمية^(١):

أَلَا بَكَيْتَ عَلَى الْكِرَا مِ بَنِي الْكِرَامِ أَوْلَى الْمَمَادِحِ
كَبُكَ الْحَمَامِ عَلَى فِرْوَعِ الْأَيْكِ فِي الْغَضَنِ الْجَوَانِحِ
... مَاذَا يَبْدُرُ فَالْعَقْنُ قَلْبِ مَنْ مَرَاذِبُهُ جَحَاجِحُ^(٢)
... شُمُطِ وَشُبَّانِ بِهَا لَيْلِ مَغَاوِيرِ وَحَاوِخِ^(٣)
أَلَا تَرَوْنَ لِمَا أَرَى وَلَقَدْ أَبَانَ لِكُلِّ لَامِحِ
أَنْ قَدْ تَغَيَّرَ بَطْنُ مَكَّةَ فَهِيَ مُوَحِّشَةُ الْأَبَاطِحِ
مِنْ كُلِّ بَطْرِيْقٍ لِبَطْرِيْقٍ نَقِيَّ اللَّوْنِ وَاضِحِ

ويمضي في تعديد مناقبهم، وتأبين صفاتهم، من سيادة ورفعة شأن، وكرم عطايا وهبات يمنحونها، حتى غدوا مميزين في هذا المجال:

لكرامهم فوق الكرام مزية وزن الرواجح
كثاقل الأبطال القس طاس في الأيدي الموائح^(٤)

ثم ينتقل بعد وقفته الطويلة في مدح رجال قريش إلى التحريض على المسلمين، بالإغارة عليهم ودحرهم بما لديهم من عدة وعتاد، معرضاً أثناء ذلك بمن خذل قريش في معركة بدر:

خذلتهم فئة وهم يحمون عورات الفضائح
... لله در بني عدل في أيمن منهم وناكح

(١) انظر ابن هشام: السيرة النبوية ٢ / ٧٧٦-٧٩٠.

(٢)، (٣) الجوانح: جمع جانحة وهي المائلة، العقنقل: الكتيب المنعقد من الرمل، المراذبة:

الرؤساء، والجحاجح: جمع جحجج وهو السيد، المغاوير: كثيرو الغارة على الأعداء، الوحاجح: الحديدو النفس الأقوياء.

(٤) القسطاس: الميزان الكبير، والموائح: التي تتهاذى بينها لثقل ما تحمله.

إن لم يغيروا غارة شعواء تُجحرُ كل نابح^(١)
بالمقربات المبعدا ت الطامحات مع الطوامح^(٢)
مرداً على جرد إلى أسد مكالبه كوالح

وعلى الرغم من أن عاطفة الحزن واللوعة في القصيدة ذهب بها ثقل ألفاظ التهويل والإثارة وغرابتها وخشونة جرسها^(٣)، وأن نغمة الاعتداد وعلو نبراتها غلبت أنه الحزن ورقة زينها، فإن التعريض ظل خطأً نامياً في القصيدة سواء في طلب البكاء على القتلى أو في التذكير بمكانة قريش وقتلاها، أو في التعريض بمن خذلها، أو في الدعوة إلى الإغارة والانتقام من المسلمين.

والتعريض بالشعر أسلوب عدائي عمل المشركون على توظيفه في إحباط الدعوة الإسلامية في خطاها الأولية، وكان المسلمون يخشونه آنذاك، ولذلك حفز الرسول صلى الله عليه وسلم الشعراء من أصحابه لدحض افتراءات المشركين، وإعابتهم بالهجاء، وكان شعراء الدعوة قد أخذوا بأسلوب البلاغ والدعوة إلى الدين الجديد، من خلال تخصص كل منهم بجانب فيما دار من مناقضات بينهم وبين قريش ومن دار في مدارها.

وإذا زدنا على ذلك أن أمية بن أبي الصلت ثقفى وقتلى بدر قرشيون، أدركنا مدى خطورة هذا التعريض في التحالف القبلي، واتساع دائرة العداوة والتصدي، وترجح القول لدينا بالنهي عن روايتها جملة آنذاك، على الرغم من خصوص دافعية الرثاء إليها^(٤).

(١) تجحر: تلجئه إلى حجره.

(٢) المقربات: الخيل التي تقرب من البيوت لكرمها، والمبعدا.

(٣) د. عبد الحفيظ السطلي: ديوان أمية بن أبي الصلت ص ٢٥٨.

(٤) كانت أم أمية قرشية، وهي رقية بنت عبد شمس بن عباد بن عبد مناف، وكان عتبة وشيبة ابنا ربيعة ممن قتل في بدر وهما ابنا خال أمية. (الإصابة ١/١٢٩).

فإذا تباعد العهد بيدراً قليلاً، باعتبار ما تقدم، وغداً كثير ممن شارك فيها قولاً أو عملاً مسلماً، وأصبح من كان مشركاً يرفل مع المسلم بنعمة الله إخواناً، لم يعد للقصيدة شأن في كيان الدعوة، لكن الشأن فيما تضمنته من هجاء لصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا يهون من هذا الهجاء القول بأن النيل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كان باعتبارهم الشخصي لا الديني، تبريراً لحذف ابن هشام للبيتين اللذين وقع فيهما الهجاء^(١)؛ لأن هذا النيل ما كان ليكون لولا التزامهم بالدين الجديد وتلازمهم مع الدعوة تلازماً محا صفاتهم الجاهلية، وغيب ما ورثوه من أدرانها، فلم يعد للنسب أو المكانة القبلية اعتبار خاص في الإسلام إلا بقدر ما يسخر ذلك في خدمة الإسلام وأهله^(٢).

ولئن كنت لا أرى رأي ابن هشام في إسقاط الراوية بعض ما يروي لفساد أو فحش، إذ يخرج من تبة ذلك موقف إيجابي بالتعقيب على ما يروي، فإني أحسب أنه أحسن صنفاً إذ غيب هذا الهجاء فلم يعد متداولاً مذكوراً، فأخرج بذلك القصيدة من دائرة الحرج إلى الإباحة.

وكان من الممكن أن يكون إسقاط ابن هشام بيتي الهجاء في قصيدة أمية دليلاً على فهم متميز بمقصود نهي الرسول صلى الله عليه وسلم في خصوصيته لما فحش من الهجاء، في الجزء دون الكل من القصيدة، لولا منهجه^(٣) في شعر الهجاء وروايته، الذي يسقط به ما كان هجاءً مقدماً، سواء أكان صاحبه مسلماً أو مشركاً، إذ نراه يقول في قصيدة حسان بن ثابت رضي الله عنه التي مطلعها:

يَا حَارٍ قَدْ عَوَّلْتَ غَيْرَ مَعُولٍ عِنْدَ الْهَيَاجِ وَسَاعَةَ الْأَحْسَابِ

(١) د. يحيى الجبوري: شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه ص ١٨٦.

(٢) قال صلى الله عليه وسلم: «خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا».

(٣) سيأتي تفصيل هذا الاتجاه المنهجي في الفصل الثاني من الباب الثالث.

«تركنا منها بيتاً واحداً أقذع فيه»^(١).

ومهما يكن شأن منهج ابن هشام الذي أراد ألا يكون فيه أحد الشاتمين على حدّ المأثور في القول: «الرواية أحد الشاتمين» فهو يرشد إلى ثلاثة أمور:

أولها: أن نهي الرسول صلى الله عليه وسلم عام لكل شعر فاسد، وليس خاصاً بقصيدة أمية وقصيدة علقمة، إذ الترخيص في الأشعار كلها إلاً هاتين القصيدتين تنقضه الدراية. فالفاحش والماجن والمشرك من شعر الجاهلية وهجاء قريش للرسول والمسلمين والدعوة، معان مرفوضة، غير مصرح بتداولها، إلاً بموقف إيجابي عند الإشارة إليها بالحكاية في العلم أو الدلالة.

ثانيها: لا بد من موقف إيجابي للرواية مما يرويه، وما حذف أبيات أمية في هجاء الصحابة إلاً إشارة على هذا الموقف.

ثالثها: إن إسقاط ما فحش من المعاني في قصيدة ما مخرج لها من باب الممنوع إلى باب المباح.

ويبقى بعد ذلك السؤال قائماً وهو لماذا كان النهي عن رواية قصيدة أمية بن أبي الصلت جزاءً، ولم يكن إهدار دمه عقاباً كما كان شأن غيره ممن حرض على الإسلام والمسلمين؟

وقصيدة الأعشى في هجاء علقمة مطلعها^(٢):

شأقتك من قتلة أطلالها بالشطّ فالوتر إلى حاجر

ورمى الأعشى علقمة بالخنا والفجور بصريح القول:

دعها فقد أَعْدَرَتْ في حُبِّها
واذْكَرَ خَنَا عَلْقَمَةَ الْفَاجِرِ

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ٢/٧٧٥.

(٢) انظر الأعشى الكبير: ديوانه ١٩١-١٩٣.

ويعمد إلى السخرية من علقمة بالموازنة بينه وبين عامر بن الطفيل:

عَلَقَمَ لَا لَسْتَ إِلَى عَامِرِ النَّاقِضِ الْأَوْتَارِ وَالْوَاتِرِ
سُدَّتْ بَنِي الْأَحْوَصِ لَمْ تَعُدُّهُمْ وَعَامِرٌ سَادَ بَنِي عَامِرِ
يَا عَجِبَ الدَّهْرَ مَتَى سُوِّيَا كَمْ ضَاحِكٍ مِنْ ذَا وَكَمْ سَاخِرِ
فَاقِنِ حَيَاءَكَ أَنْتَ ضَيَعْتَهُ مَالِكَ بَعْدَ الشَّيْبِ مِنْ عَاذِرِ
وَلَسْتَ بِالْأَكْثَرِ مِنْهُمْ حَصِي وَإِنَّمَا الْعِزَّةُ لِلْكَائِرِ
عَلَقَمَ لَا تَسْفِهْ وَلَا تَجْعَلِنِ عَرْضَكَ لِلْوَارِدِ وَالصَّادِرِ
وَلَسْتَ فِي السَّلْمِ بِذِي نَائِلِ وَلَسْتَ فِي الْهَيْجَاءِ بِالْجَاسِرِ

والذم بالمفاضلة على هذا النحو «من أشد الهجاء وأمضه، ولو أنه شتم وأفحش لعدّ سفيهاً، أما أن يهجو على هذا النحو من التعريض، فإنه يجعل الظنون تتسع كما يجعل النفوس تتعلق بمعنى كلامه، وتكثر من تأويله»^(١).

وفضلاً عن هذا الهجاء، وهو أفسد أضرب الشعر في نظر الإسلام، تثير قصيدة الأعشى في علقمة فتنة قبيلة، كانت وئدت بحكم هرم بن قطبة بن سنان، الذي سوى بين عامر وعلقمة بقولته المشهورة: «أنتما كركبتي البعير الأدرم، يفعان الأرض معاً، وينهضان معاً، قالاً فأينا اليمنى؟ قال: كلاهما يمين»^(٢).

وجاء الأعشى بعد هذه التسوية يجدد الخصومة، ويبعث المنافره، وقد انفضّ الناس عنها، مغرضاً في نواياه، خبيثاً في مقاصده. والفتنة بعد ذلك قريبة عهد بالإسلام إذ جرت أحداثها بين عام أربعة قبل الهجرة، وأربعة بعدها، فهي مترامنه ودعوة النبي صلى الله عليه وسلم بعد بعثته^(٣). ولا شك أن هذه الفتنة شملت بعضاً من المسلمين السابقين إلى الإسلام في هذه الفترة، قياساً على من دخل في الإسلام

(١) د. شوقي ضيف: العصر الجاهلي ص ٣٥١.

(٢) الجاحظ: البيان والتبيين ١/٣٣٧.

(٣) د. محمد محمد حسين: ديوان الأعشى الكبير ص ١٨٨.

بعد ذلك، مثل الحطيئة الذي مال إلى علقمة مؤيداً، ولييد الذي كان مع عامر متحيزاً. والباحث عن خطر هذه القصيدة في إشارة فتنة قد وئدت، وإحياء عصبية قد أخمدت، يدركه فيما ورد على لسان هرم بن قطبة، وقد سأله عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «أرأيت لو تنافرا إليك اليوم، أيهما كنت تنفر؟ يعني علقمة بن علاثة أم عامر بن الطفيل. فقال: يا أمير المؤمنين! لو قلت فيهما كلمة لأعدتها جذعة»^(١).

بهذه الأبعاد يصدق القول بمرحلية النهي عن رواية هذه القصيدة، ويكون الجمع بينها وبين قصيدة أمية في قران قوياً بعلّة متوحدة بأول عهد الناس بالإسلام.

ويرشد موقف عبد القادر البغدادي من رواية هذه القصيدة إلى ما أرشد إليه موقف ابن هشام من رواية قصيدة أمية بن أبي الصلت، إذ أسقط البغدادي ما فحش من هجاء الأعشى فقال: «وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن رواية هذه القصيدة، ولهذا لم أذكرها كلها»^(٢).

غير أننا إذا أخذنا بحديث محمد بن مسلمة الذي فرد بالنهي رواية قصيدة الأعشى في هجاء علقمة، فإن القول بالمرحلية يغدو بعيداً عن القبول، منافراً للصواب، إذ حدد الرسول عليه الصلاة والسلام علة النهي بحسن خُلُق علقمة وصدقه بحفظ غيبة رسول الله، فاستحق بذلك شكره وثناءه عليه، بالأ يسمع هذا الطعن الذي ينال من شرف علقمة.

وهذه العلة ذات إطلاق وامتداد، نالها علقمة بكرم خلقه الجاهلي، وزادها إسلامه بعد ذلك تأكيداً وشرعية، فالحماية التي منحها له رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظ غيبته وعدم إيذائه بالطعن والهجاء وهو جاهلي كانت محدودة في إطار الفعل والخلق الذي قدمه، في حين أن إسلامه بعد ذلك يهبه حماية أشمل وأعم في

(١) الجاحظ: البيان والتبيين ٢٣٧/١ وجذعة: شابة فتية.

(٢) عبد القادر البغدادي: خزانة الأدب: ٤٠٠/٣ ط الخانجي.

ماله وعرضه، فَيَحْرُمُ سبابه أو ظلمه أو إيذاؤه، «فكل المسلم على المسلم حرام...»، ولما كان سباب المسلم للمسلم فسقاً وقاتله كفراً، فكيف بالكافر يسب مسلماً، ويرميه كذباً ببهتان وافتراء في خلقه وعرضه؟

إن في القصيدة أذى كبيراً لعلقة جاهلياً ومسلماً، فهي مما لا تجوز روايته بقصد الظلم والإيذاء، لأن الهجاء سباب متردد، وإيذاء متجدد، فالنهي عن ذلك لا يكون مرحلياً.

ويفضي بنا الأمر في ذلك إلى استشعار تعارض بين علتين، علة مفهومة مقدرة، وعلة منطوقة مقيدة، فبأي علتين نأخذ؟ وأي الحديثين أصح؟

إن ثمة مؤشرات أدبية قد تزيد من دفع حديث النهي العام عن قصيدتي أمية والأعشى والنهي الخاص عن قصيدة الأعشى في علقمة، من ذلك أن قصيدة الأعشى في هجاء علقمة (شأقتك من قتلة أطلالها) من البحر السريع، وهو بحر نادر في الشعر الجاهلي، بل هو غريب عن شعر الأعشى نفسه، فلم يرد له فيه سوى هذه القصيدة^(١).

وللأعشى قصيدة أخرى في هجاء علقمة لا تقل عن القصيدة السابقة إيذاءً وانتقاصاً ومطلع هذه القصيدة:

لعمرى لئن أمسى من الحي شاخصاً لقد نال خيصاً من غفيرة خائصاً
ومن فاحش الهجاء في القصيدة قول الأعشى:

تبيتون في المشتى ملاء بطونكم وجاراتكم غرثى يبتن خمائصاً
وقد أوجع هذا الهجاء علقمة فكان يقول: «قاتله الله أنحن كذلك»، لأن الأعشى جعل البخل عاماً في عشيرة علقمة حين أسند الفعل إلى الجماعة «تبيتون»، وتخير

(١) انظر د. محمد محمد حسين: الهجاء والهجاؤون في الجاهلية ص ١١٢.

الشتاء وقتاً مخصوصاً بالذكر في اتخام بطونهم، لينزع عنهم الإحساس بغيرهم، وليحصر أثرتهم في بطونهم عند العسر واشتداد الجوع فيه، وزاد على ذلك نعتهم بغلظ القلوب وقسوتها حين خصّ النساء بهذا الجوع الذي يحتجن معه إلى العطف والرافة، ولذلك فهو أهجى بيت قالته العرب عند أبي عمرو بن العلاء^(١).

ولشناعة هذا البيت كان عبد الملك بن مروان يقول: «يا بني أمية! أحسابكم أعراضكم، لا تعرضوها على الجهال، فإن الظم باق ما بقي الدهر، والله ما سرنى أني هجيت بيت الأعشى، وأن لي طلاع الأرض ذهباً»^(٢).
وبالتهجاء المقذع بالظم المفاضل بين عامر وعلقمة، الكاشف عن تخلف مرتبة علقمة قبلياً، يقول الأعشى:

فلو كنتم نخلاً لكنتم جرامة ولو كنتم نبلاً لكنتم معاقصاً^(٣)
رمى بك في أحراهم تركك العلى وفضل أقواماً عليك مراقصاً
فعض جديد الأرض إن كنت ساخطاً بفيك وأحجار الكلاب الرواهصاً^(٤)

فليست هذه القصيدة بأهون أثراً من سابقتها في إثارة فتنة قبلية، خاصة أن الأعشى في هذه القصيدة يعرج على حكومته المزعومة بين عامر وعلقمة^(٥).
وإذا كان الأمر كذلك فلماذا ورد النهي عن قصيدة دون القصائد المقولة في هذا الأمر؟ الخصوص المناسبة؟ أم لخصوص بعض المعاني؟ أم أن هذه القصيدة الثانية صناعة متأخرة عن زمن المنافسة غشيها النحل بما غشي قصة المنافسة كاملة.

إن نحلاً يعتري القصيدة من خلال الشك في قصة المنافسة بين عامر وعلقمة، غير أنه شك بلا دليل إلا الخشية والظن بأن العصبية والمنافسة القبلية وراء ذلك.

(١) أبو أحمد العسكري: المصون في الأدب ص ١٨.

(٢) الحصري: زهر الآداب ج ٢/١٠٨٨.

(٣) النخل المجروم: المصروم المقطوع، والمعقص: السهم المعوج.

(٤) الرواهص: الحجارة الثابتة. (٥) انظر الأعشى الكبير: ديوانه ص ١٤٩-١٥١.

يقول الدكتور طه حسين: «وإن شئت أن أحدثك برأيي في صراحة وصدق، فأني أشك شكاً شديداً في أن يكون الأعشى قد مدح عامراً أو مدح علقمة، إنما كانت المنافرة بين هذين الرجلين، واشتدت العصبية حولهما في الإسلام لا في الجاهلية، فحلت هذه العصبية من الشعر في مدح الرجلين وهجائهما شيئاً كثيراً، حمل بعضه على الأعشى، وبعضه على لييد، وبعضه على الحطيئة، ويكفي أن تقرأ قصة هذه المنافرة في الأغاني لترى أنها قصة قد وضعت ورضعت وزينت على نحو ما كانت ترصع القصص وتزين بالسجع والشعر والغريب، ولا سيما حين تتصل هذه القصص بالإغراب»^(١).

وفي هذا الشك قدر من الإصابة بالنظر إلى مرويات صاحب الأغاني في الأخبار والقصص التي لم يقصد فيها إلى صدق أو كذب بل إلى طرافة وإمتاع فحسب، وقدر كبير من مجانبة الصواب في مذهبه إلى أن هذه المنافرة إنما كانت في الإسلام بدءاً واشتداداً لا في الجاهلية، لأنها من غير دليل، فضلاً عن تعارضها مع الأخبار والمرويات الموثوقة.

على أنه يستأنس للشك في قصيدة الأعشى وتضعيف النهي عن روايتها بقصيدة منحولة أخرى للأفوه الأودي جاءت بعض الأخبار بنهي الرسول صلى الله عليه وسلم عن روايتها وهو غير صحيح، وقصيدة الأفوه الأودي مطلعها:

إن ترى رأسي فيه قزع وشواتي خلة فيها دوار

«قال القتيبي وغيره: من جيد شعر العرب، ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عن إنشادها لما فيها من ذكر إسماعيل عليه السلام:

رَشَّتْ جُرْهُمُ نَبلاً فرمى جرهما منهم فُوقَ وغرار
يا بني هاجر ساءت خطة أن تروموا النصف منا ونجار»^(٢)

(١) د. طه حسين: في الأدب الجاهلي ص ٣٢٨.

(٢) عبد العزيز الميمني: الطرائف الأدبية ص ٣.

وقد كفى الجاحظ الباحثين عناء البحث عن ضعف هذه الرواية، إذ شكك في معاني القصيدة الإسلامية فقال: «وأما ما رويتم من شعر الأفوه الأودي:

كشهاب القذف يرمىكم به فارس في كفه للحرب نار

فلمعري إنه لجاهلي، وما وجدنا أحداً من الرواة يشك في أن القصيدة مصنوعة، ويعد، فمن أين علم الأفوه أن الشهب التي يراها إنما هي قذف ورجم، وهو جاهلي، ولم يدع هذا أحد قط إلا المسلمون، فهذا دليل آخر على أن القصيدة مصنوعة»^(١).

مما سبق يتبدى تعاضد الدراية مع الرواية على إضعاف هذا الأسلوب في النهي عن رواية بعض قصائد المشركين دون بعض.

رواية شعر الصراع في عهد الصحابة والتابعين :-

من المأثور عن ابن عباس في هذا المجال قوله: «الشعر ديوان العرب، وهو أول علم العرب، فعليكم بشعر الجاهلية، شعر أهل الحجاز»^(٢)، وترغب مروية أخرى في شعر الحجاز لأنه عني عنه إذ يقول: «تعلموا الشعر فإنه أول علم العرب وهو ديوان الأدب وعليكم بشعر الحجاز، فإنه شعر الجاهلية، وقد عني عنه»^(٣).

ولا سبيل إلى إنكار تداول هذا الشعر بعد أن انتصر الإسلام على أعدائه من المشركين ودخولهم في دين الله طوعاً أو كرهاً، بيد أن رواية هذا الشعر يجدر النظر إليها وفهم دلالتها من خلال أطر ثلاثة:

أولاً: رغب كثير من المسلمين في تجنب ما قيل من هذا الشعر على الرغم من أن الإسلام عفا عما سلف، وعمّا كان يقال من شعر، قصداً إلى جمع الأمة،

(١) الجاحظ: الحيوان ج ٦/٢٨٠.

(٢) رواه ابن جرير في منتخب كنز العمال ١/٣٠٦.

(٣) المظفر بن الفضل العلوي: نصره الإغريض في نصره القريض ص ٣٥٦.

وتمسكاً بوحدها، وتثبيتاً لمن أسلم بعد الفتح، ودفعاً لإهاجة النفوس والخواطر بإثارة ماضٍ قريب. فقد روى مسلم أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرّ بحسان بن ثابت رضي الله عنه وهو ينشد الشعر في المسجد النبوي، فلحظ إليه فقال: قد كنت أنشد وفيه من هو خير منك، ثم التفت إلى أبي هريرة فقال: نشدتك الله: أسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: أجب عني، اللهم أيده بروح القدس، قال: اللهم نعم^(١).

فقد فهم حسان دلالة النهي أو الزجر في لحظ عمر له، فاحتج بأن هذا الشعر أنشده رسول الله صلى الله عليه وسلم فنال رضاه ودعا الله له بالتأييد، لأنه دفاع عنه وعن الإسلام. ويمضي عمر لسبيله على غير رضى عن صنيع حسان؛ لأنه من غير باعث حميد، أو مناسبة مفروضة، ولكنه مع ذلك لا يملك إلا الصمت والتسليم لفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأييده لحسان في هذا المجال.

وليس بصائب الافتراض أن من اجتمع إلى حسان في المسجد النبوي كان راضياً عمّا ينشده، بل إن فيهم من يمثله موقف عمر بن الخطاب حين لحظ حسان، ويستأنس لذلك بحديث ضعيف عن أسماء بنت أبي بكر قالت: «مرّ الزبير بن العوام بمجلس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وحسان بن ثابت ينشدهم من شعره، وهم غير نشاط لما يسمعون، فجلس الزبير معهم وقال: مالي أراكم غير آذني لما تسمعون من شعر ابن الفُرَيْعَةَ، فلقد كان يعرض به لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيحسن استماعه ويجزل عليه ثوابه، ولا يشتغل عنه بشي»^(٢).

ثانياً: حرص بعض المسلمين على الاحتفاظ به شاهداً تاريخياً في الدعوة الإسلامية، واسلوباً من أساليب الجهاد والدفاع عنها، وكان الأنصار أشد الناس

(١) رواه مسلم: صحيح مسلم ٤٥/١٦ (فضائل حسان).

(٢) رواه الطبراني وفيه عبد الله بن مصعب الزبيري وهو ضعيف (الهيثمى: مجمع الزوائد ١٢٥/٨).

رعاية وحفاظاً على هذا الشعر، إذ كانوا يعلمونه أهل المدينة كما في حديث
عمار بن ياسر حين أذن لهم بهجاء المشركين «قولوا لهم كما يقولون لكم» قال:
فلقد رأيتنا نعلمه أهل المدينة^(١)، وقال جلاد بن محمد عن موقف الأنصار في
هذا المجال: «فأدركته والله، وإن الأنصار لتجدده عندها إذا خافت بلاه»^(٢).

ومما لا شك فيه أن الأنصار هم الذين آووا ونصروا وممن جاهدوا في سبيل الله،
وحمل شعرهم تعبيراً عن هذه الفضائل، وتجسيداً لهذه المعالم الدعوية، وصاروا
مرمى لسهام قريش ومن حالفها، ومحطاً لإقذاع هجائهم. فهم بهذه الأحوال التي
اتبعوا فيها الرسول صلى الله عليه وسلم ساعة العسرة ركن مكين في تاريخ الإسلام،
نالوا رضى الله عز وجل وأرفع الدرجات عنده: ﴿والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في
سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا﴾^(٣) ﴿والسابقون الأولون من
المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه، وأعد لهم
جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً، ذلك الفوز العظيم﴾^(٤) ﴿والسابقون
السابقون، أولئك المقربون في جنات النعيم، ثلثة من الأولين، وقليل من
الآخرين﴾^(٥).

ثالثاً: التنبيه على كفر كربه قد مضى يجب الندم عليه، والعزم على التوبة منه،
وإلزام بحمد الله على ما أنعم به من حال تبدل بإيمان يتجدد، يقول السهيلي
عن رواية ذلك: «فما ذكر من هذا على جهة الحكاية نظماً أو نثراً فإنما يقصد
به الاعتبار بما مضى، وتذكر نعمة الله تعالى على الهدى، والإنقاذ من
العمى»^(٦)، ومن حسن إسلام المرء وصدق توبته «أن يكره أن يعود إلى الكفر
كما يكره أن يلقي في النار» فالعزة والسيادة دائمة لله ولرسوله وللمؤمنين، أما

(١) رواه أحمد والبخاري بنحوه والطبراني ورجالهم ثقات (الهيثمي: مجمع الزوائد ٨/١٢٤).

(٢) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ٤/١٤١ ط دار الكتب.

(٣) سورة الأنفال: آية ٧٤. (٤) سورة التوبة: آية ١٠٠.

(٥) سورة الواقعة: آية ١٠-١٤. (٦) السهيلي: الروض الأنف ٥/٧٣.

الكفر فينبغي أن يظل مدحوراً.

روى ابن سلام عن ابن جعدبة قال: «قدم ضرار بن الخطاب الفهري وعبد الله بن الزبيري المدينة أيام عمر بن الخطاب، فأتيا أبا أحمد بن جحش الأسدي - وكان مكفوفاً، وكان مألُفاً يُجتمَعُ إليه ويتحدث عنده، ويقول الشعر - فقالا له: أتيناك لترسل إلى حسان بن ثابت فنناشده ونذاكره، فإنه كان يقول في الإسلام ونقول في الكفر، فأرسل إليه فجاء، فقال: يا أبا الوليد! أخواك تطربا إليك! ابن الزبيري وضرار، يذاكرانك ويناشدانك، قال: نعم، إن شئتما فابديا! قالوا: نبدأ. فأنشدها، حتى إذا صار كالمرجل يفسور، قعدا على رواحلهما. فخرج حسان حتى تلقى عمر بن الخطاب، وتمثل بيت ذكره ابن جعدبة لا أذكره، فقال عمر: وما ذاك؟ فأخبره خبرهما، قال لا جرم، لا يفوتانك. فأرسل في أثرهما فرداً. وقال لحسان: أنشدهما، فأنشد حاجته، قال: أكتفيت؟ قال: نعم، قال: شأنكما الآن، إن شئتما فارحلا، وإن شئتما فأقيما»^(١).

إن نزوعاً جاهلياً أدركه عمر بن الخطاب في موقف عبد الله بن الزبيري وضرار بن الخطاب، لأن استرجاع شعر الكفر صدى باطل زاهق في أرجاء عامرة بالحق، فضلاً عن أنه بيان عن عدم صدق التوبة ما دام القلب يجد حلاوة المعصية ويلذ بها. فأراد عمر بصوت حسان وشعره، صوت الحق والإسلام، أن يظل ظاهراً، لاشية فيه، ولا مخالفة لمنهجه. وقدم عمر تفسيراً لموقفه هذا الناسخ لموقف له سابق، منع فيه تناشد ما كان من نقائص الأنصار ومشركي قريش فقال: «إني كنت قد نهيتكم أن تذكروا مما كان بين المسلمين والمشركين شيئاً، دفعاً للتضاغن عنكم، وبث القبيح فيما بينكم، فأما إذا أبوا، فاكتبوه واحتفظوا به»^(٢).

وفي حمى هذا التصور والفهم، فإن من مجانبة الحق، ومجافاة منطق العلم،

(١) ابن سلام الجمحي: طبقات فحول الشعراء ١/ ٢٤٣-٢٤٤.

(٢) الأصفهاني: الأغاني ٤/ ١٤١.

أن يؤخذ ببعض الروايات السابقة دون بعض آخر؛ لإسقاط أوهام على موقف كل من حسان وعمر رضي الله عنهما، وأن ينحرف تفسير ذلك عن حقيقة تميّز إيمان هذا الجيل من الصحابة، والتأدب بعدم التسرع في رميهم بالعصبية القبلية، والانحراف عن جادة الحق .

فقد انحصر جهد من تصدى لهذه القضية فيما جرى بين عمر وحسان وهو ينشد شعره في المسجد النبوي دون غيرها، فيقول طه حسين: «وفقه هذه الرواية يسير لمن يلاحظ ما قدمناه من أن الأنصار كانوا متورين، وأن عصبيتهم كانت لا تطمئن إلى انصراف الأمر عنهم، فكانوا يتعزّون بنصرهم للنبي وانتصافهم من قريش، وما كان لهم من البلاء قبل موت النبي، وما أفادوا بأيديهم وألسنتهم من مجد .

وكان عمر قرشياً تكره عصبية أن تزدرى قريش، وتكر ما أصابها من هزيمة، وما أشيع عنها من منكر، وكان فوق هذا كله أميراً حازماً يريد أن يضبط أمور الرعية، وأن يؤسس ملك المسلمين على شيء غير العصبية، وقد وفق بعض التوفيق، ولكنه لم يظفر بكل ما كان يريد»^(١).

وهذا الفقه متناقض، ينقض آخره أوسطه وأوله، إذ كيف يريد عمر ضبط أمور الرعية وتأسيس ملك المسلمين على غير العصبية، وعمر نفسه كما يزعم صاحب هذا الفقه «كان قرشياً تكره عصبية أن تزدرى قريش . . . فكيف بصاحب العصبية والهوى أن يقيم حكماً على غير عصبية؟! وكيف يستقيم هذا المدح والطنن في سياق واحد؟! بل كيف بصاحب الهوى والعصبية أن يتأصل شأفتها من غيره، أو يعالج حسناً منها وهو عليل بها؟! إن صاحب الهوى والعصبية لا يملك ألا يكتشف الناس هواه فينصرفوا عنه .

ولست أدري كيف يستقيم هذا الفهم ويرمى عمر بالعصبية لقريش في هذا

(١) د. طه حسين: في الأدب الجاهلي ص ١٢٠-١٢١ .

الموقف، وقد كان بالأمس يحرض حسناً على هجاء هند بنت عتبة بقوله: «يا بن الفريعة: لو سمعت ما تقول هند، ورأيت أشرها قائمة على صخرة ترتجز بنا وتذكر ما صنعت بحمزة... قال له حسان: ولكن أسمعني بعض قولها أكفيكموها، فأنشد عمر بعض ما قالت، فقال حسان:

أشرت لكاع وكان عاداتها لؤماً إذا أشرت مع الكفر^(١)»

بل لماذا لم تسكت العصبية عمر عن ملاحقة ابن الزبيري وضرار حين أنشدا حسناً شعرهما في الجاهلية ومضيا؟ وكان بإمكانه أن يعالج غضب حسان بتذكيره برسوخ إيمانه وحدائث إسلام هذين الشعارين.

ويمضي باحث آخر لترديد هذا الفهم الذي لا ينزع إلا عن الوهم ذاته فيقول: «وكان من آثار تلك العصبية أن حسناً كان يغتنم الفرصة - كلما سنحت - لإثارة الأحقاد ونبش الماضي في التنغي بانتصار الأنصار على القرشيين».

وطاب لهذا الباحث أن يأخذ برواية الأغاني الملفقة دون رواية مسلم الصحيحة فيقول: «حتى إن عمر مر به يوماً وهو ينشد في مسجد الرسول فأخذ بأذنه وقال: «أرغاء كرغاء البعير» وعمر إذ يأخذ بأذن حسان يريد أن يردع فيه هذه النزعة الجاهلية التي تثير أحقاد الماضي^(٢)».

إن هذا الباحث وجد ضالته في رواية أبي الفرج التي لا تستقيم ولا تليق في أدب التعامل بين سفهاء الناس وضلالهم، ولم يلتفت إلى شعوبية أبي الفرج وأكاذيبه في النيل من تاريخ العرب والمسلمين وتشويه صورتهم، فالفرق شاسع بين رواية مسلم في صحيحه «فلحظ إليه» ورواية أبي الفرج «فأخذ بأذنه وقال أرغاء كرغاء البكر».

ويتجه باحث آخر بحادثة إنشاد حسان في المسجد اتجاهاً آخر لا يبتعد عن

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ٣/٨٧٤.

(٢) د. يحيى الجيوري: الإسلام والشعر ص ١٠٤.

العصية واتهام الصحابة رضي الله عنهم بإفرازاتها المنتنة فيقول: «ولعل هذا الذي راج بينه وبين عمر حول إنشاد الشعر يكشف عن العواطف الفاترة المتبادلة بين الخليفة والشاعر، وهي عواطف قائمة على الخلاف بين المهاجرين والأنصار حول الخلافة منذ وفاة الرسول. ونحن نعرف أن ابن الخطاب وقبله أبا بكر كانا على رأي المهاجرين ومن حزبهم، وإذا عرفنا بعد هذا أن عثمان بن عفان لم يكن يذهب هذا المذهب استطعنا أن نفهم سرّ التجاوب الذي كان بينه وبين حسان، وهو ذلكم التجاوب الذي تمثله الأشعار التي يدعو فيها إلى الأخذ بثأره، وهو تجاوب مذهبي عززته العلاقات الخاصة التي كانت تجمع بينهما على حد ما تذكر كتب السيرة»^(١).

ومصادر صاحب هذا الرأي هي مقولات بعض المستشرقين الذين صنعوا من اختلاف آراء الصحابة - وهو أمر طبيعي في البشر - مذاهب حزبية ذات مآرب دنيوية وعلاقات خصوصية، ولو كلف نفسه أن يأخذ الحقيقة من مصدرها الصادق لوجد الغناء والحق، إذ في كتب السنة أبواب في فضائل الصحابة، زكى فيها المصطفى صلى الله عليه وسلم أبا بكر وعمر وعثمان وحساناً... وغيرهم، كلاً بما هو أهله، والحديث عن الخلافة الإسلامية ويوم السقيفة له مجال آخر، لكن لا بد من القول إن الإسلام هو المصلحة العليا عند هؤلاء الصحابة، وما كان أحد ليتقدم أبا بكر أو المهاجرين وقد سمع قول رسول الله «لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، إن صاحبكم خليل الله»^(٢) وما قالت عائشة وقد سئلت: «من كان رسول الله مستخلفاً لو استخلفه، قالت: أبو بكر، فقيل لها ثم من بعد؟ قالت: عمر، ثم قيل من بعد؟ قالت: أبو عبيدة»^(٣).

على أن ما جرى في السقيفة يومئذ كان مؤتمراً للتداول في الرأي وليس للخلاف،

(١) د. عباس الجراري: من أدب الدعوة الإسلامية ص ٤٧-٤٨ وممن ذهب إلى رمي حسان

بالتزعة القبلية د. يحيى الجبوري (انظر شعر عبد الله بن الزبير ص ١٩).

(٢) رواه مسلم: صحيح مسلم ١٥٣/١٥.

(٣) رواه مسلم: صحيح مسلم ١٥٤/١٥ وانظر ما بعدها.

والتداول يفرض أن يبدي كل من الأنصار والمهاجرين وجهة نظره في أولوية الترشيح للمبايعة الخاصة، ولم يصل أمرها إلى حد الاختلاف، إذ سرعان ما حسم الأمر ببساطة متناهية، قال عمر: «فكسر اللغظ، وارتفعت الأصوات، حتى تخوفت الاختلاف، فقلت: ابسط يدك يا أبا بكر، فبسط يده، فبايعته المهاجرين، ثم بايعته الأنصار»^(١) وفي اليوم التالي بايع الناس أبا بكر بيعته العامة بعد بيعة السقيفة.

وهكذا جانب الباحثون الصواب حين ابتعدوا بحادثة إنشاد حسان عن حقيقة مقصد عمر في نهيه عن ذلك لأن فيه «شتم الحي بالميت وتجديد الضغائن، وقد هدم الله أمر الجاهلية بما جاء في الإسلام»^(٢) من الأخوة والمحبة.

ومن الغرابة حقاً أن يكون هذا الإصرار من الباحثين على تلويث الصحابة الأجلاء بالعصية التي قال عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم «دعوها فإنها منتنة»، استكباراً منهم وإنكاراً أن يكون الإسلام قد شغف قلوب هذا الجيل، فأضحى حبه لا يعدله حب الآباء والأبناء والإخوان، إذ يلقي الابن أباه المشرك فيقتله، ولا يتوانى الأخ عن إبلاغ الرسول بفعل أخيه المنكر ليهدر دمه.

على أن توقيير الصحابة رضي الله عنهم من الآداب الشرعية التي يجب مراعاتها، فقد روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «الله الله في أصحابي، لا تتخذونهم غرضاً بعدي، من أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه»^(٣).

وحفظ الصحابة والتابعون للأنصار منزلتهم في الإيواء والنصرة، فقد روي أن

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ١٥١٨/٤.

(٢) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ١٤٠/٤.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٨٧/٤، وأخرجه الترمذي في المناقب باب فيمن سب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم رقم ٣٨٦٢. (وقد جاء الحديث من طرق عدة، وهو مع ضعفه يصلح في المواضع التي تأمر بتوقيير الصحابة) (انظر عذاب الحمش: ثعلبة بن حاطب ص ٦).

يزيد بن معاوية قال لكعب بن جعيل^(١): إن عبد الرحمن بن حسان قد فضحنا، فاهج الأنصار! فقال له كعب: أرادي أنت إلى الشرك! أأهجو قوماً نصرُوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأووه؟! ولكنني دالك على غلام منا نصراني كافر شاعر، فذله على الأخطل الذي قال:

ذهبت قريش بالمكارم كلها واللؤم تحت عمائم الأنصار

فلما قال هذا البيت دخل النعمان بن بشير بن سعد الأنصاري على معاوية فحسر عمامته عن رأسه ثم قال: يا معاوية! أترى لؤماً؟ فقال ما أرى إلا كرمًا فقال النعمان:

معاوي الا تعطنا الحق تعترف لحي الأزد مسدولاً عليها العمائم
أيشتمنا عبد الأرقام ضلة فماذا الذي تجدي عليك الأرقام
فمالي ثار دون قطع لسانه فدونك من ترضيه عنه الدراهم

وفي رواية أن معاوية قال له: أو قال ذلك! قال: نعم، قال لك لسانه^(٢).

وازدواجية موقف كعب بن جعيل من الأنصار لا تلغي التزامه بأن هجاء الأنصار شرك أو كفر كما في رواية أخرى «أرادي أنت إلى الكفر بعد الإسلام» أما موقف معاوية فذو دلالة على رعاية شأن الأنصار ومنزلتهم.

وإذا عدنا إلى الأطر الثلاثة السابقة التي يجدر أن تفهم في حدودها رواية شعر الصراع بين مكة والمدينة في هذا العهد، فقد كان طبيعياً أن يروى هذا الشعر بدوافع فردية ومقبولاً في أحوال ليست مطردة، غير أنه من غير الطبيعي ولا المقبول أن يضحى هذا الشعر مادة الغناء والقيان واللهو والشراب، لأنه انحراف برواية هذا الشعر عن مقاصدها الدينية، من ذلك القصة التي رواها أبو الفرج الأصفهاني عن الحسين بن

(١) شاعر مفلق قديم في أول الإسلام أقدم من الأخطل والقطامي عدّه ابن سلام في الطبقة الرابعة ٥٧٢/١.

(٢) ابن سلام: ١/ ٤٦١-٤٦٤ وابن قتيبة: الشعر والشعراء ٤٩٦/٢ والكامل ١/ ١٧٨-١٧٩.

يحيى عن حماد عن أبيه عن بعض القرشيين، أن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب دخل عليه معاوية بعد أن وشى بجعفر أحد الناس، فوجد عزة الميلاء بين يديه تغنيه على عودها قصيدة حسان:

تبليت فؤادك في المنام خريدة تسقي الضجيع بيارد بسلام
قال معاوية بعد أن استطاب شراب العسل المخلوط بالمسك والكافور؛ «فما هذا الغناء؟ قال: هذا شعر حسان بن ثابت في الحارث بن هشام، قال: فهل تغني بغير هذا؟ قال: نعم الشعر الذي يأتيك به الأعرابي الجافي الأذفر (التنن) القبيح المنظر، فيشافهك به، فتعطيه عليه، وأخذه أنا فأختار محاسنه ورقيق كلامه فأعطيه هذه الحسنه الوجه فترسله بهذا الصوت الحسن... قال معاوية: فما تحريك الرأس؟ قال: أريحيه أجدها إذا سمعت الغناء، لو سئلت عندها لأعطيت، ولو لقيت لأبليت. فقال معاوية: قبح الله قوماً عرضوني لك»^(١).

والقصة بادية عوار الكذب والتلفيق، بدءاً براويتها حماد الذي كان غير موثوق الرواية^(٢)، وقد «سلط على الشعر من حماد ما أفسده فلا يصلح أبداً»^(٣) ومروراً بمعاوية الذي تظهره هذه الرواية جاهلاً بالشعر الإسلامي فيسأل عن قصيدة مشهورة لحسان بن ثابت في الحارث بن هشام يعيره فيها بفراره من معركة بدر، ساذجاً يسأل عن ماهية تحريك عبد الله لرأسه في سماع الغناء، وانتهاء بعبد الله ابن شهيد مؤته جعفر بن أبي طالب ومن آل بيت النبوة الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم أشبهت خلقي وخلقي، إذ تقدم هذه القصة عبد الله لاهياً منصرفاً في حياته إلى الغناء، تغنيه عزة الميلاء، وهي ليست مما ملكت يمينه، ويتعالى على الأعراب ويستقدر هيتهم.

وفي حمى الأطر الثلاثة السابقة أيضاً غابت رواية شعر المشركين عن الأسماع،

(١) الأصفهاني: الأغاني ٢١٢/٤.

(٢) ابن سلام: طبقات فحول الشعراء ٤٨/١.

(٣) الشريف المرتضي: أمالي المرتضي ٩١/١.

وأضحى نادراً جداً ذكر شعرهم، ولذلك شكك ابن سلام في أن هشام بن عروة كان ينشد قصيدة ابن الزبعرى في يوم أحد التي يقول فيها:

كل بؤس ونعيم زائل	وبنات الدهر يلعبن بكلّ
والعطيات خسّاس بيننا	وسواء رمسٌ مشرٍ ومقل
ليت أشياخي ببدر شهدوا	ضجر الخزرج من وقع الأسل
حين ألقّت بقناة بركها	واستحر القتل في عبد الأشلّ
فقبلنا النصف من سادتهم	وعدلنا ميل بدر فاعتدل

وقال: «وزعم ابن جعدبة أنه سمع هشام بن عروة ينشد هذا الشعر، وسمعتة قال: عنه رويته»^(١) ولا شك أن الزعم مطية الكذب فيما يقولون، فمن غير الإحسان أن ينشد هذه القصيدة أو يرويها لغير غاية من علم أو دلالة، لأنها ظاهرة التشفي والشماتة بما حلّ بالمسلمين يوم أحد.

ولغياب شعر المشركين عن التداول والرواية أسباب اختيارية عقدية، إذ أن تغييب هذا الشعر كان مقصوداً من مصدرين أساسيين من مصادر الرواية الشعرية:

الأول: شعراء المشركين أنفسهم الذين أسلموا بعد فتح مكة :-

فقد حرص الشعراء الذين أسلموا بعد فتح مكة على التخلص من شعرهم الذي كانوا يهجون به المسلمين بإتلافه أو البراءة منه، بل إنهم ودوا لو لم يكن موجوداً بعد أن عرفوا حقيقة الغواية التي كان الشيطان يملي لهم فيها، ولكن أنى لهم ذلك؟!!

حقاً أن شعراء قريش خاصة لم يكونوا ليحجروا على محفوظ الناس من هذا الشعر؛ لأنهم تناقلوه فيما بينهم، وغدا يسير بين القبائل مروياً، إلا أن تحول الناس من الكفر إلى الإيمان بعد فتح مكة، ساعد الشعراء على التخلص من هذا الهجاء،

(١) ابن سلام: طبقات فحول الشعراء ٢٣٩/١.

خاصة أن الناس أدركوا في ظل الدين الجديد أن من هذا الهجاء ما هو كفر، ومنه ما هو فسق .

وأحسن بعض هؤلاء الشعراء في انتقاء الوسيلة القادرة على محو شعرهم الجاهلي البغيض من ذاكرة الناس ومحفوظ الرواة، وذلك بإحلال شعر جديد يحمل معالم الشخصية المسلمة، بالاعتذار عمّا سلف، والتوبة إلى الله، ومدح الرسول صلى الله عليه وسلم، ويعد عبد الله بن الزبيرى شاهداً عدلاً في ذلك، إذ قال عند إسلامه، فمدح النبي واعتذر إليه وأحسن^(١):

يا رسول الملّك إن لساني
إذ أباري الشيطان في سنن الغي
إنني عنك زاجر ثمّ حيا
أذهب الله ضلة الجهل عنا
راتق ما فتقت إذ أنا بور
ومن مال ميله مشبور
من لؤي وكلهم مغرور
وأنا الرخاء والميسور

وقال أيضاً^(٢):

منع الرقاد بلابل وهموم
مما أتاني أن أحمد لامني
يا خير من حملت على أوصالها
إني لمعتذر إليك من الذي
أيام تأمرني بأغوى خبطة
وعليك من أثر الملّك علامة:
مضت العداوة فانقضت أسبابها
فاغفر - فدي لك والداي كلاهما -
والليل معتلج الرواق بهيم
فيه، فبت كأنني محموم
عيرانة سرح اليمين رسوم
أسديت إذ أنا في الضلال أهيم
سهم، وتأمرنني بها مخزوم
نور أضاء، وخاتم مختوم
ودعت أواصر بيننا وحلوم
ذنبني، فإنك راحم مرحوم

(١) ابن سلام الجمحي : طبقات فحول الشعراء ٢٤٢/١ .

(٢) المصدر نفسه ٢٤٢/١ .

فابن الزبيرى وهو يعتذر للرسول صلى الله عليه وسلم يصور حالته في الغواية متألماً حين كانت قبيلتنا سهم ومخزوم تغويانه وتقودانه إلى تنفيذ خطط الشؤم بالتعرض للرسول وصحبه، ويؤكد إيمانه بصدق رسالة محمد صلى الله عليه وسلم. أما وقد انقضت أسباب العداوة وحل محلها أوامر القرابة والرّحم فابن الزبيرى طامع بالمغفرة والرحمة عن هذا الزلل الذي أصابه في سابق أيامه.

وفي قصيدة أخرى كان مدار التوبة على هذا الهمّ الذي يعيشه الشاعر مما اقترفه من إثم وعاش فيه من ضلال وعمه، كانت تزينه له بنو جمح وبنو سهم إذ يقول^(١):

سرت الهموم بمنزل السهم	إذ كنّ بين الجلد والعظم
ندماً على ما كان من زلل	إذ كنت في فنن من الإثم
حيران يغمه في ضلالته	مستوراً لشرائع الظلم
عمه يزينه بنو جمح	وتوازرت فيه بنو سهم
فاليوم آمن بعد قسوته	عظمي وآمن بعده لحمي
بمحمد وبما يجيء به	من سنة البرهان والحكم

فشاعر هذه المعاني الذي يعلن بالتم وحرقة عن توبته عما سبق من جاهلية، ويمدح الرسول صلى الله عليه وسلم، حريص على الإكثار من مدائحه ليكفر بها عما اجترحه من سيئات وينسخ بها شعره الجاهلي، ويؤكد هذه الكثرة ابن الأثير بقوله معقّباً على مدائحه «في أشعار كثيرة يعتذر فيها»^(٢)، ويفسر ابن عبد البر هذه الكثرة بقوله «وله في مدحه (للنبي) أشعار كثيرة ينسخ بها ما قد مضى من شعره في كفره»^(٣) وقد ضاع هذا الشعر لأسباب اضطرارية أخرى كالحروب والفتن والضياع.

(١) د. يحيى الجيوري: شعر عبد الله بن الزبيرى ص ٥١.

(٢) ابن الأثير: الكامل ٢/ ٢٥٠.

(٣) ابن عبد البر: الاستيعاب ٢/ ٣٠٠.

الثاني : رواة الشعر :-

وحرصت الرواية الإسلامية على تجاهل شعر المشركين في المسلمين وإسقاطه قصداً واختياراً؛ لأن الرواة تخرجوا من روايته أو رواية بعضه، خاصة ما نال من النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم، أخذوا بمنهج الإحسان في التأدب معهم، إذ أن «حفظ البيت الواحد مما هجى النبي صلى الله عليه وسلم به، يري قبحه، ولا يتوارى قبحه»^(١).

ويوضح السهيلي موقفه وموقف الرواة من هذا اللون من الشعر فيقول: «لكنني لا أعرض لشيء من أشعار الكفرة التي نالوا فيها من رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلا شعر من أسلم وتاب كضرار وابن الزبير، وقد كره كثير من أهل العلم فعل ابن اسحاق في إدخاله الشعر الذي نيل فيه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن الناس من اعتذر عنه، قال: حكاية الكفر ليس بكفر، والشعر كلام، ولا فرق بين أن يروى كلام الكفرة ومحاجتهم للنبي صلى الله عليه وسلم وردهم عليه منثوراً، وبين أن يروى منظوماً، وقد حكى ربنا سبحانه في كتابه العزيز مقالات الأمم لأنبيائها، وما طعنوا به عليهم»^(٢).

وقد اختلف أهل العلم في قليل ذلك من الأبيات المحدودة المعدودة في البيت والبيتين تروى اضطراراً في الحكاية، أو الاستشهاد في مجال اللغة، انطلاقاً من تأول عائشة رضي الله عنها لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم «لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً حتى يريه خير له من أن يمتلىء شعراً» في الأشعار التي هجى بها رسول الله، وإنكارها حمله على العموم في جميع الشعر.

ويرى السهيلي أن الإعراض عن هذا الشعر إباحة واختياراً خير من روايته، ولا بأس من رواية البيت والبيتين اضطراراً على الحكاية يقول السهيلي: «وإذا قلنا بما

(١) المظفر بن الفضل العلوي: نضرة الأغريض ص ٣٦١.

(٢) السهيلي: الروض الأنف ٧٣/٥.

روي عن عائشة في ذلك فليس في الحديث إلا عيب امتلاء الجوف منه، وأما رواية اليسير منه على الحكاية أو الاستشهاد على اللغة فلم يدخل في النهي، وقد رد أبو عبيد على من تأول الحديث في الشعر الذي هجي به الإسلام، وقال: رواية نصف بيت من ذلك الشعر حرام، فكيف يخص امتلاء الجوف منه بالذم، وعائشة أعلم، فإن البيت والبيتين والأبيات من تلك الأشعار على جهة الحكاية بمنزلة الكلام المنشور الذي ذموا به رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا فرق. وقول عائشة الذي قدمناه ذكره ابن وهب في جامعه، وعلى القول بالإباحة، فإن النفس تقدّر تلك الأشعار، وتبغضها وقائلها في الله، فالإعراض عنها خير من الخوض فيها والتبع لمعانيها»^(١).

ولا يقف الباحث على شيء من هذا الهجاء، على الرغم من أن دلائل الصراع وعدد الشعراء المشاركين فيه تدل على كثرته، وكل ما بقي من آثاره إشارات في شعر المسلمين، كما في قول كعب بن مالك في هجائه لابن الزبيرى:

تبجست تهجورسول المليك قاتلك الله جلفاً لعينا

وقول حسان بن ثابت لأبي سفيان بن الحارث:

هجوت محمداً فأجبت عنه وعند الله في ذاك الجزاء
أتهجوه ولست له بكفء فشركما لخيركما الفداء

وسقط هذا الهجاء أيضاً من المصادر الأدبية والتاريخية ولم يبق إلا وصفه كقول ابن سلام عن شعر هبيرة بن أبي وهب: «وكان شديد العداوة لله ولرسوله، فأخمله الله ودحقه»^(٢) ويصف الأمدى شعر ابن الزبيرى بأنه: «شاعر مفلق خبيث، كان مؤذياً لرسول الله صلى الله عليه وسلم بلسانه»^(٣) ويقول ابن سلام في شعر كعب بن

(١) السهيلي: الروض الأنف ٧٤/٥.

(٢) ابن سلام: طبقات فحول الشعراء ٢٥٧/١.

(٣) الأمدى: المؤلف والمختلف ص ١٩٤.

الأشرف: «وشبب بنساء رسول الله صلى الله عليه وسلم ونساء المسلمين»^(١).

وما تناقله الرواة من شعر هذا الصراع بين الكفار والمؤمنين إنما هو فيما لا يمس الدين أو العرض، كالتحريض على المسلمين، أو التشفي بهزيمتهم في أحد، أو الوعد بالانتقام أو بكاء قتلى المشركين، أو الفخر بالنصر، أو وصف المعارك.

على أن ما بث خلال هذه المعاني من هجاء فاحش أو مقذع قد عفي عليه وطمس بإسقاطه من الرواية، وكان ابن هشام صاحب منهج في هذا المجال إذ أنه يشير إلى الأبيات التي أسقطها كقوله في قصيدة أمية بن أبي الصلت في رثاء قتلى بدر: «تركنا منها بيتين نال فيهما من أصحاب رسول الله»^(٢) وفي قصيدة لابن الزبير يرد فيها على أبي بكر، قال ابن هشام: «تركنا منها بيتاً واحداً»^(٣).

شعر الردة :-

لم تفرض حروب الردة، وما دار فيها من صراع بين الكفر والإيمان، شعر نقائص كالذي فرضه الصراع بين كفار قريش والمسلمين، وذلك لأسباب متعددة؛ فقد اتسعت المساحة الجغرافية التي جرى فيها هذا الصراع، حيث امتد شمالاً حتى الحمقتين من مشارف الشام، وجنوباً إلى تهامة اليمن وحضرموت، وشرقاً إلى البحرين ودُبا (قصة من قصبات عمان)، مروراً بأواسط الجزيرة في اليمامة ونجد ويطاحها، وكان أبو بكر رضي الله عنه قد عقد لها أحد عشر لواءً في مقاتلتها والقضاء عليها^(٤).

وفقد هذا الاتساع المركزية القبلية التي تقود الصراع وتوجهه، على الرغم من وجود قبائل معدودة في الكثرة والشأن مثل كندة وربيعة وسليم وهوازن وقضاعة ووديعة والمحارث، وهذه المركزية نقطة خلاف جوهرية عن الصراع الذي جرى بين كفار

(١) ابن سلام: طبقات فحول الشعراء ٢٨٢/١.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية ٧٩٠/٢.

(٣) المصدر نفسه: ٦٣٠/٢.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٢٢٥/٣.

العرب بزعامة قريش والمسلمين، إذ كانت هذه الزعامة تحظى بتأييد العرب وقبائلهم، وكان لشعرها الذي أنهضه الصراع سيرورة وشأن بين القبائل، على العكس من شعر الردة الذي ظل محدوداً في أطر ضيقة من الإقليمية.

ولم تعمر ردة هذه القبائل طويلاً، إذ يسر الله القضاء عليها في سنة واحدة، بل في شهور عشرة من السنة الحادية عشرة للهجرة (١١ - ١٢هـ)، طهر الله بها أرض العرب من الكفر، وأشرقت الأرض بنور ربها.

وكان لانتشار الإسلام في هذه القبائل أثر في تمكين أعوان للمسلمين فيها، عملوا على وعظ أقوامهم، بدعوتهم إلى الثبات على الإسلام، وتحذيرهم من الردة إلى الكفر، من ذلك قول خويلد بن ربيعة لقومه بني عامر^(١):

أراكم أناساً مجتمعين على الكفر وأنتم غداً نهب لخيل أبي بكر
بني عامر إن تأمنوا اليوم خالداً يصبكم غداً منه بقارعة الدهر

ووعظ الضحاك بن سفيان بن الحارث السلمي قومه، وأنشدهم شعراً بين لهم منه ما جرّ عليهم زعيمهم الفجاءة السلمي من خزري وعار^(٢):

لقد جر الفجاءة على سليم مخازي عارها في الدهر باق

كذلك فعل كثيرون كالحارث بن مرة النفيلي مع قومه بني عامر، وعبد الله بن مالك الأرحبي مع بني همدان، وعبد الحارث بن أنس الحارثي في أهل نجران، وزفر بن يزيد الأسدي في بني أسد^(٣).

وإذا كانت حروب الردة قد فقدت المركزية القبلية التي توحدتها، فقد ضل شعر

(١) ابن حجر: الإصابة ٤٥٧/١.

(٢) ابن حجر: الإصابة ١٩٨/٣.

(٣) انظر: د. سامي مكّي العاني: دراسات في الأدب الإسلامي ٢٤٦-٢٥١.

الردة أيضاً القضية المركزية التي يلتف حولها، ويتمحور عندها، فدارت مضامينه على الفخر بقتل المسلمين، ورتاء من قُتل من المرتدين، والإبانة عن أسباب الردة، ويكاد يخلو هذا الشعر من معارضة الإسلام، أو الانتقاص من مبادئه، أو هجاء أهله، أو تناول الأعراض، أو التعرض للآباء والأمهات إلا ما نذ عن ذلك كقول الحطيئة^(١):

أطعنا رسول الله إذ كان بيننا فيا لهفتنا ما بال دين أبي بكر
أبورثها بكرةً إذا مات بعده فتلك وبيت الله قاصمة الظهر
فقوموا ولا تعطوا اللئام مقادة قوموا ولو كان القيام على الجمر
فدى لبني نصر طريفي وتالدي عشية ذادوا بالرماح أبا بكر

ويقول طليحة الأسدي مفتخراً ومتشفياً بقتل ثابت بن أقرم القضاعي^(٢):

فما ظنكم بالقوم إذ تقتلونهم اليسوا وإن لم يسلموا برجال
فإن تك أذوادُ أحصبن ونسوة فلن يذهبوا فزعاً بقتل حبال
نصبتُ لهم صدر الجمالة إنها معاودةٌ قيل الكمأة نزال
فيوماً تراها في الجلال مصونةً ويوماً تراها غير ذاتِ خلال
عشيّة غادرتُ ابن أقرم ثاوباً وعكاشة الغنمي عند مجال

ويفترض أن يكون شعر المرتدين كثيراً، قياساً بعدد القبائل التي شاركت في حروب الردة، غير أن ما روته المصادر التاريخية والأدبية قليل؛ الأمر الذي يحمل على الظن بأن جانباً منه طمسه الرواة، إما اكتفاءً ببعضه دون بعض، خاصة أن رواته غالباً من المؤرخين كالطبري والبلاذري والواقدي ممن يؤثر الاستئناس بالشعر في الدلالة التاريخية^(٣)، وإما إغفالاً له حيث أكثر شعرائه من شعراء البادية المقلين والمغمورين.

(١) المبرد: الكامل ٣٩٣/١ وفي الأبيات السابقة لهذه الأبيات هجاء مقذع للقبائل المتمسكة بالإسلام

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية: ٦٧٦/٢.

(*) في كتاب الردة للواقدي شعر كثير (ط دار الغرب الإسلامي ١٩٩١).

ومهما يكن السبب في قلة هذا الشعر، فإن ما قاله الشعراء المسلمون في هذه الحروب كان يدور حول السخرية من المرتدين وهجائهم بالخزي، ووصمهم بالكفر، وتوعدهم بالقتل، والفخر بالقوة وشدة البأس وتوقع الهزيمة لهم^(١)، غير أن هذا الشعر لم يشارك فيه أحد من فحول شعراء الدعوة الإسلامية، إلا ما كان من حسان بن ثابت في أبيات وردت في ديوانه يدافع فيها عن كنية أبي بكر حين كناه المرتدون بأبي الفصيل انتقاصاً من قدره، فقال حسان^(٢):

وما البكر إلا كالفصيل وقد ترى أن الفصيل عليه ليس بعار
إننا وما حجَّ الحجيج لبيته ركبنا مكة معشر الأنصار
نفري جماجمكم بكل مهند ضرب القدار مبادي الأيسار
حتى تكنوه بفحل هنيذة يحمي الطروقة بازل هدار

وتجدر الإشارة إلى أن شعراء الردة وجدوا في أسماء الحيوان ودلالاتها مجالاً للهجاء بها والتنازع بألقابها، فعمرو بن معد يكرب يهجو حين ارتد فروة بن مسبك وكان والياً على زييد من قبل الرسول صلى الله عليه وسلم فيقول^(٣):

وجدنا ملك فروة شر ملك حماراً ساف منخره بشفر
وكننت إذا رأيت أبا عمير ترى الحولاء من خبث وغدر
ولما فارق زياد بن عبد الله الغطفاني عيينة بن حصن الذي بايع طليحة بن خويلد
في الردة، قال زياد^(٤):

(١) انظر د. سامي مكّي العاني: دراسات في الأدب الإسلامي ص ٢٥٦ وشعر المخضرمين ص ٣٠٩-٣١٧.
(٢) حسان بن ثابت: ديوانه ص ٢٠٩-٢١٠. وانظر نقيضة حسان لمحكم بن الطفيل (كتاب الردة ص ١١٥).

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية ٥٨٥/٢.

(٤) ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة ٥٦٣/١.

أبلغ عينة إن عرضت لداره قولاً يشير به الشفيق الناصح
أعلمت أن طليحة بن خويلد كلباً بأكناف البزاحة نايح
كيف البقاء إذا أتاكم خالد ومهاجرون مسومون سوابح

ويظل هذا الشعر بعيداً عن الفحش والقبح الذي رميت به الأمهات، وقذفت به
الأعراض، مما دار في شعر نقائض المشركين والمسلمين^(١).

ولم يستنهض أبو بكر رضي الله عنه شعراء المسلمين لهذه الحرب ومقولاتها دفاعاً
عن الإسلام، خاصة أنه عزم على خنق الردة، وقتل المرتدين، وكانت نظرتة إلى
شعرها المقول فيها أنه مفتعل لا فاعلية له، ومتعلقه بالغواية، إذ يقول لعمر بن
الخطاب لما قال له: يا خليفة رسول الله، تألف الناس، فأخذ بلحيته وقال: يا ابن
الخطاب أجباراً في الجاهلية، حواراً في الإسلام، علام أتألفهم؟ أعلى حديث
مفتري، أم على شعر مفتعل، قال ابن تيمية: «فذكر الحديث المفتري والشعر
المفتعل، كما ذكر الله الأفاكين والشعراء، وكان الإفك في القوة الخبرية، والشعر في
القوة العملية الطليعية، فتلك ضلال، وهذه غواية»^(٢).

غير أن هذا الشعر المفتعل حكى في جوانب منه صوراً نفسية من تشفي المرتدين
وحقدهم، ولذلك كان تعزيز عمر بن الخطاب رضي الله عنه لمن اهتدى بعد العمى،
فقد جاء أبو شجرة السلمي إلى عمر يستحمله^(٣)، فقال له عمر: أي عُديّ نفسه،
ألست القائل حيث ارتددت:

ورويت رمحي من كتيبة خالد وإنني لأرجو بعدها أن أعمرا

(١) روى ابن سلام للأغلب العجلي قصيدة فاحشة في النيل من سجاح لما تزوجت مسيلمة، غير
أنه شكك فيها بقوله: «أنه كان يقال إن هذه القصيدة في الجاهلية لجشم بن الخزرج».

انظر ابن سلام: طبقات فحول الشعراء ٢ / ٧٤٠-٧٤٣.

(٢) ابن تيمية: الفتاوى ج ٢ / ٤٣.

(٣) يستحمله: يسأله أن يحمله.

وعارضتها شهباء تخطر بالقنا ترى البيض في حافاتهما والسَّنوراً
ثم انحنى عليه بالدرّة، فسعى إلى ناقته... هرباً من الدرّة»^(١).

لكن عمر بن الخطاب أبدى إعجاباً وتعاطفاً مع مراثي متمم بن نيرة لأخيه مالك الذي قُتل مرتداً، لا لقيمة المرثي أو علو شأنه، وإنما لصدق الرائي في التعبير عن حزنه، إذ يرغب عمر في تحديد مبلغ حزن متمم على مالك فيسأله: «يا متمم! ما بلغ حزنك على مالك؟ فقال: بكيت عليه بعيني الصحيحة حتى أسعدتها بالبكاء عيني العوراء، فقال أمير المؤمنين: هذا نهاية الحزن»^(٢).

وإنما كان مبعث هذا الحزن، وصدق هذا الانفعال، يقين الشاعر التابع من عقيدته، بأن مقتل أخيه أوداه إلى النار، ولذلك تجده يحدد باعث ألمه وحزنه في رده على طلب عمر بن الخطاب في رثاء أخيه زيد: «لوددت لو أنك رثيت زيدا أخي بمثل ما رثيت به مالكا أحاك! فقال متمم: «يا أبا حفص! والله لو علمت أن أخي صار بحيث صار أخوك ما رثيته، فقال عمر: ما عزّاني أحد عن أخي بمثل تعزيتة»^(٣).

ولا ينازع في قيمة هذه المراثي أنها مقولة في مرتد مات كافراً؛ لأن متمم بن نيرة أكد في مراثيه أمرين حفظ فيهما للإسلام حضوراً وتوجيهاً:

أولهما: أنه دفن شعور السخط وانفعال عدم الرضى عن قتل أخيه، ليحیی بدلاً منه ويسود في مراثيه مجموعاً من المشاعر النبيلة كالحزن والألم الممزوج بالصبر والتعزي عن الموت بالإيمان الصادق بأنه حق لا مدفع له، وذلك كلما غلبه

(١) المبرد: الكامل ١/٣٨٨.

(٢) الخالديان: الأشباه والنظائر ٢/٣٤٦ وأشار المبرد إلى صدق متمم وحسن كلامه في بعض المقاطع (انظر التعازي والمراثي ص ١٥).

(٣) المبرد: التعازي والمراثي: ٢٠-٢١ وانظر: الشعر والشعراء ١/٣٣٨ وطبقات فحول الشعراء ١/٢٠٩، وقد قدم ابن سلام لهذه المقولة بقوله: «ومن أحسن ما سمعت من عذر خالد» حيث يفيد ذلك أن متمماً متيقن من أن مالكا مات كافراً مرتداً.

البكاء في استرجاع ذكرياته^(١):

وعشنا بخير في الحياة وقبلنا أصاب المنايا رهط كسرى وتبعنا
... وغيرني ما غال قيساً ومالكاً وعمراً وجزءاً بالمشقر المعنا
وما غال ندماني يزيد، وليتني تمليته بالأهل والمال أجمعا
فقصرك إني قد شهدت فلم أجد بكفي عنهم للمنية مدفعا

وبالود الصادق، والحب الغامر، ظلل متمم علاقته بأخيه في القصيدة:

وكنا كندماني جذيمة حقة من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
... فوالله ما أسقي البلاد لحبها ولكنني أسقي الحبيب المودعا

وبين هذا الحب الغامر والحزن الذي يهفو بصبره، أبدى متمم توازناً منضبطاً
بالاعتدال الإسلامي في اختلاف الأحوال، وتباين الإنفعال، فلا الفرح يبطره، ولا ألم
المصيبة يكسره:

فلا فرحاً إن كنت يوماً بغبطة ولا جزعاً مما أصاب فأوجعا
على الرغم من عظم مصابه بأخيه الذي لورزعت به الجبال لتضعضت به:

فلو أن ما ألقى يصيب متالعاً أو الركن من سلمى إذا لتضعضعا
وما وجد أظآر ثلاث روائمٍ أصبن مَجْرأً من حوار ومصرعا
... بأوجد مني يوم قام بمالكٍ منادٍ يصير بالفراق فأسمعا

وبالتذكير بأن الأيام دول، وأن الموت لا منجاة لأحد منه، استوعب متمم
إحساس الشماتة الذي أبداه المُجَلُّ بن قدامة بموت مالك:

فلا نفرحن يوماً بنفسك إنني أرى الموت وقاعاً على من تشجعا

(١) اقتصر في الأمثلة والتحليل على الميمية، لأنها أشهر هذه المراثي وأجودها عند أهل النقد.

وبطمأنينة الموقن بأن الموت حق، رفض متمم التحريض الباعث على الانتقام لقتل أخيه:

فقصرك أني قد شهدت فلم أجد بكفي عنهم للمنية مدفعاً^(١)

وبذلك كان استقرار العقيدة في قلب متمم بن نويرة، وامتلاء نفسه بها، باعثاً لمشاعره النبيلة، وضابطاً لأحاسيسه المتصارعة بين السخط والرضى، ومقياساً احتوى به ميوله وغرائز نفسه باعتدال وطمأنينة.

ثانيهما: واقعية التصوير لشخصية المرثي، إذ لم يزور متمم شخصية مالك أخيه؛ لتبدو مثالية لا وجود لها، أو كاملة لا نقص فيها، ولا حاد عمّا يشينه في نظرة الإسلام بالتبرير والاعتذار، نزوعاً به إلى التسامي. فقد نوه بمآثر أخيه في الإيثار والجدود في الشدائد والأزمات، وغلبة الخصوم، وجلده في الحرب وإقدامه ووفائه:

لسيب أعان اللب منه سماحة
ويوماً إذا كظك الخصم إن يكن
وإن ضرس الغزو الرجال رأيت
وما كان وقافاً إذا الخيل أحجمت
أبى الصبر آيات أراها وإنني
أرى كل جبل بعد جبلك أقطعاً^(٢)

وبكى متمم خصلتين في خلق مالك، على الرغم من رفض الإسلام لهما، وهما: أنسه بمجالس الميسر، وتهذيبه في شرب الخمر ومعاقرتها:

(١) قال أبو جعفر أحمد بن الحسين الملقب محمد يس في معنى البيت: «أقلي واقصري فإني لم أقدر أن أغالب الأمير خالد بن الوليد رضي الله عنه، ولو أمكنتني لفعلته» (شرح ديوان المفضليات ص ٥٤١) ويقول التبرزي وهو الأصوب: «إنني جاهدت فلم أجد إلى الدفاع عنه، والذب دونه سبيلاً» (شرح المفضليات ٢/٩٦٦).

(٢) معنى قوله: «بعد جبلك أقطعاً أي قد ذهب الوفاء من الناس» (شرح المفضليات ص ٥٣٤).

ولا برماً^(١) تهدي النساء لعرسه إذا القشع من حس الشتاء تقعقعا
وإن تلقه في الشرب لا تلق فاحشاً على الكأس ذا قاذورة متزبعا
وللشرب^(٢) فابكي مالكاً وليهمة شديد نواحيه على من تشجعا

لأن متمم بن نويرة يرثي بصدق وواقعية صورة مالك الجاهلية التي يجد لأكثر
جوانبها الخيرة صدى فيما أقر الإسلام من مكارم الأخلاق، ولذلك فهو قانع بمحامد
أخيه المودع، راغب في إحسان الظن به، ولذلك فهو يقول:

فإن تكن الأيام فرّقن بيننا فقد بان محموداً أخي حين ودّعا
وهذا الصدق الذي شمل القصيدة إحساساً ومدحاً ورتاءً كان وراء سؤال عمر بن
الخطاب له: سألتك الله يا متمم هل كان أخوك على ما تصفه في شعرك؟ قال: اللهم
نعم، إلا أنني قلت في بعض ذلك:

فتى غير مبطان العشيات أروعا

وقد كانت له بطن حادره^(٣).

ويقال إن مالك بن نويرة كان ذا بطن، وإنما أراد أنه كان لا يأكل آخر نهاره انتظاراً
للأضياف، وقال بعضهم: المبطان هو الذي يغيب بالعشيات عن الناس في الشرب
ويتبع الريب^(٤).

(١) قال أبو محمد القاسم بن محمد بن بشار الأنباري: «البرم: الذي لا يأخذ في الجزور نصيباً،
أي ليس من الأيسار، والمعنى يريد أن مالكا يسر في وقت الجذب... وقال: البرم: الذي لا
يدخل مع القوم في الميسر» شرح المفضليات ص ٥٢٨.

(٢) قال أبو محمد الأنباري: «وللشرب: يريد فابكي مالكاً للشرب لأنه كان يسقيهم ويرفدهم وينحر
لهم، والبهمة: مائة فارس؛ أي أنه كان يقوم مقامهم» (شرح المفضليات ص ٥٣١).

(٣) الخالديان: الأشباه والنظائر ٢/٣٤٦.

(٤) الخطابي: غريب الحديث ١/٣٠٢-٣٠٣.

وحظيت مراثي متمم بن نويرة لذلك كله بتداول رواة الشعر^(١) في مصنفاتهم، فالمبرد وإن عدّ قصيدة متمم العينية من «مراثي الجاهلية المشهورة المستحسنة المستجادة المقدمة» فقد تخيّر منها مقاطعات وصفها بأنها من حر الكلام وصادق المدح^(٢). وقال ابن سلام: وبكى متمم مالكاً فأكثر وأجاد، والمقدمة منهن قوله: (لعمري وما دهري بتأبين هالك...)^(٣).

وروى الخالديان من هذه المراثي اليسير اجتناباً للتطويل، فقد جاء في الأشباه والنظائر: «ومراثي متمم في مالك كثيرة، وإنما أتينا باليسير اجتناباً للتطويل»^(٤) ومن هذه المراثي ما عدّه النقاد أرثى بيت قالته العرب^(٥).

مما سبق ننتهي إلى القول: إن الصدق بجانيه الفني والخلقي، والواقعية في التصور والتصوير، من لوازم التعطف الإسلامي على فن القول وقبوله ورفع درجته وقيّمته رواية ونقداً.

-
- (١) يقال إن عائشة رضي الله عنها تمثلت بميمية متمم حين وقفت على قبر أخيها عبدالرحمن حين دفن بمكة (معجم الشعراء ص ٤٣٣).
 - (٢) المبرد: كتاب التعازي والمراثي ص ١٣.
 - (٣) ابن سلام: طبقات فحول الشعراء ٢٠٩/١.
 - (٤) الخالديان: الأشباه والنظائر ٣٥٠/٢.
 - (٥) النويري: نهاية الأرب ١٧٩/٥.